٢٠٧٦

رواية

عبد الحميد بشارة

يسطرون
للنشر والتوزيع

٢٠٧٦

رواية

لـ

عبد الحميد بشارة

دار يسطرون

الطبعة: الأولي

الكتاب: ٢٠٧٦

المؤلف: عبد الحميد بشارة

تصميم وإخراج: هشام أنور

المقاس: ١٤×٢٠

رقم الإيداع: ١٦٨٢٠ـ ٢٠١٤

الترقيم الدولي:
٩٧٨ـ٩٧٧ـ٦٤٥٨ـ٨٣ـ٣

الناشر: دار يسطرون للنشر والتوزيع

٣شارع صفوت-المطبعة-فيصل-
الجيزة

ت/ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ـ
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

إن ذلك لا يعني أننا متجهون جميعا نحو الهاوية، بل يعني أننا في الهاوية بالفعل، ولكننا نؤجل إعلان ذلك

ع.ب

"قد لا تكون ترغب فى الحرب ولكن الحرب ترغب فيك"

تورتسكى

١

دقت الساعة معلنة السابعة صباحا

استيقظت مع دقاتها الأولي

هل أنا كنت نائما ؟

لا أدري ...

كانت الليلة الماضية كئيبة مظلمة، تكاثفت غيومها وتلبدت سماؤها، ليس من السهل أن تنهي عملك اليومي بتأنيب وتهديد بالرفد لأسباب غير منطقية من مدير متعجرف لا يعرف عن مهنة الصحافة شيئا، وكل مؤهلاته النفاق والكذب والغش والتدليس.

هذه هي المؤهلات!، لو أردنا جمع هذه المفردات في كلمة واحدة تجمع معانيها كلها ولا تنقص من مراميها شيئا لكانت الكلمة هي: سعيد حتحوت رئيس تحرير جريدة الخبر.

ولكني لم أكن أعترض عليه في سلوكياته (اللا أخلاقية) في نظر البعض في تملقه ووصوليته، ولا حتى أنتقد هذه الأخلاق السيئة ـأو المؤهلاتـ فكم تمنيت أن أكون نصفه أو بنصف مؤهلاته تلك حتى تغدق عليّ الصحافة من فيض كرمها الجم الذي لا تنعم به إلا على أمثال حتحوت.

أما غضبه بالأمس فأنا أعرف سببه الحقيقي، غار الرجل مني لتزلفي لفاتنة من فاتنات السينما لمّا رآنا بشيراتون القاهرة صدفة منذ يومين.

سألني بغضب عارم خلف ابتسامة صفراء:

ــ ماذا كنت تفعل مع غادة ياسين؟.

فاكتفيت بقولي البارد مع ابتسامة مغيظة:

ــ مسألة شخصية.

هه .. الرجل المغفل ابن السابعة والخمسين يغار!، وليس بينه وبينها شيء أكثر من أنه يوفّق بينها وبين بعض رجال المال والسياسة .. وذلك مؤهل آخر.

فهمني خطأ، فلم أكن أرجو من تقربي منها سوي وساطة لدي وزير الثقافة لإلحاقي بالعمل بالوزارة، فقد كانت غادة على علاقة (ثقافية) بالوزير لا توصف، علاقة كنت أتمناها بيننا كلما رأيتها وسرح فيها الخيال الطائش.

يصعب علي أن أتخيل كيف لو فصلت من الجريدة! إنها نهايتي حتما ولا يمكن أن أسمح بذلك أبدا مهما كلفني الأمر، وإن كان على المؤهلات فقد حصّلت منها الكثير، وتفوقت في بعض الجوانب التي لا يعرفها غيري حتى حتحوت نفسه، فلكل صحفي خلطته التي يصنعها بنفسه، وأدواته الخاصة في طريقه المهني.

رجعت إلى البيت متأخرا ثقيل الرأس مما هي فيه من مشكلات وخيالات مرهقة لإفراطي في التدخين وتناول الحبوب المخدرة والتى سببت لي صداعا حادا فنمت .. أو لعلني كنت نائما ...

رمقت عيني ـمع أول نظرة بعد نومي ـ نتيجة التاريخ على مكتبي بجوار الفراش، فأشارت إلى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر فبراير لعام ٢٠٧٦ ميلاديا.

ضحكت ساخرا وفركت عيني بيدي اليمني واتجهت للحمام، فوضعت رأسي أسفل الماء البارد فانتابتني رعدة صقيع، لا أدري ما سر البرودة المنتشرة في أرجاء الشقة التي تعودت منها على القيظ الدائم أغلب فصول العام.

كان ضوء شروق الشمس المتسلل خلال زجاج الحمام المكسور أصفرا غامقا .. لم أعره انتباها أو أبالغ في التركيز، وأرجعت ذلك إلي النوم المتشبث بأجفاني وخلايا مخي ويأبي النزوح.

نشفّت يدي وفركت جسدي حتى يسري الدم المتجمد بعروقي لأشعر ببعض الدفء، واتجهت نحو المطبخ فأخرجت بيضا ولبنا ووضعتهما على النار، وأخذت ملعقتان من العسل الأبيض كعادتي الصباحية ليذهبا أثر السجائر السيء من صدري، يالها من عادة تلهب الصدر كل صباح. لست أتذكر من نصحني بهذا العسل صباحا، لكنت أفرغت على رأسه عشرات البرطمانات من هذا العسل اللزج جراء ما أصابني من نصيحته اللزجة.

خرجت إلي الصالة المظلمة حيث جميع الستائر مسدلة على النوافذ تمنع مرور الضوء، فرمقت عيني على مضض فوق المنضدة طبق به بعض المخدرات والحبوب المخدرة، كيف وصلت إلى هنا، فليس من عادتي إحضارها إلي البيت! فأخذتها ووضعتها في الحمام وأفرغت عليها الماء حتى غمرها ولم يبق لها أثر وعدت إلي المطبخ.

كان البيض قد نضج، وفار اللبن حتى اتسخت عين البوتاجاز ورقعته الملساء الناصعة .. لابد أن ليلي ستلعنني كعادتها إذا رأت ذلك، فلا تزال تعاملني كطفل صغير في الثالثة عشرة من عمره، قالت لي ذات مرة عندما رأت الشعر يغزو لحيتي وأسفل أنفي إنني سأظل في عينيها طفل صغير حتى ولو ابيضت هذه اللحية

وذاك الشارب، أنت طفل حتى تموت ويتوجب علي رعايتك والتكفل بك، ورددت كلماتها حتى أجبرتني على ترديدها: أنت طفل أنت طفل أنت طفل ..!

ولم أكن أدري ماذا تقصد، لكنني أعرف الآن وأنا في الثانية والثلاثين أنها تعني أن الطفل الصغير هو فقط من عليه أن يسمع ويطيع، ويضرب ويهان، ويظل حبيس نفسه تعذبه أفكاره عن حياة جديدة، وتؤرقه طموحاته ثم يتأسف نادما، حتى وإن كانت أفعالها كلها أخطاء بينة، فهي لا تخطئ، وأنا الخطأ ذاته طول الوقت.!!

فتعودت أن أكون (طفل صغير) أمامها فقط، لكن عندما تنزل إلي عملها أو تغيب لأي سبب كان، أمارس حقي الأصيل في التمتع برجولتي وفحولتي في غيابها، فأصرخ بأرجاء الشقة حتى يجلجل صوتي، وأمر على حجراتها الست حجرة حجرة فأدخن وأنفث فيها دخاني الشره، ومع ذلك أقول لنفسي دائما: لا بأس فليلى امرأة طيبة القلب حنونة المشاعر تجاهي ، ويكفي أنها أمي، ويكفي أن اسمها .. ليلى.

والحق أنني سئمت الحياة معها ولا أستطيع مفارقتها، ولا أدري كيف الخروج من تلك الدائرة، فليتها تدرك كم حبي لها وألمي منها وشقائي بها.

انتهيت من تقشير البيض بعد أن شربت كوب اللبن بلا سكر كالعادة، وتناولت البيض (حاف) بلا قرين من الخبز.

ولا زلت أشعر أن مفاصلي نائمة، فاتجهت إلى غرفة الألعاب الرياضية، وظللت بها ما يقرب من ساعة كاملة دون كلل أو تعب، فأنا أتحمل ثقل الجبال من الحديد، حتى يكلّ الحديد مني ويتعب ولا أتعب، فأنا رجل قوي متين ...

هذه ليست الحقيقة، دائما أقول لنفسي هذه الكلمات بعدما يبلغ مني تعب الحديد مبلغه بعد دقائق قليلة من استخدامه حتى تتسنى لي العودة إليه من جديد، ولهذا التعب قررت مرارا أن أبيع هذه الأدوات الرياضية؛ لأن جسدي لم يعد يحتملها، لكن ليلى كانت تمنعني وتقف ضد هذه الرغبة كما وقفت أنا أمام رغبتها بداية واشتريتها رغما عنها، ولكني لم أبقها إلى الآن لأنني طفل صغير طبعا، فكثيرا ما أتيت ببعض أصحاب صالات الحديد العامة ليشتروا أدواتي، فكانوا يقدرونها بثمن بخس فأغضب عليهم وأطردهم أشر طردة.

وذات يوم استيقظت على صوت مشتري (الروبابكيا) ينادي بصوته المرتفع في الشارع فأسرعت إلى الشرفة وناديته، ودخل إلي غرفة الحديد فعاين مقتنياتها وقدرها بثلاثة أضعاف أصحاب الصالات الفنيين؛ لأنه قدرها بحساب ثمن الكيلو في الحديد، ولكني لم أشأ أن أهين أدواتي الرياضية وأبيعها فتوضع على كارو يجرها حمار!، كانت هذه نيتي قبل أن أتفاجأ بوجود ليلى على رأس الحجرة، وما كان منها وما فعلته لا استطيع وصفه بأقل من أنه بهدلة وقلة قيمة لي وللمشتري المسكين.

ولكن أين ليلي الآن، كان لابد أن تكون موجودة هنا؛ فالاثنين هو يوم أجازتي من الجورنال الذي نقضيه معا كل أسبوع، عدا يوم الجمعة الذي أقضيه في الصيد علي ضفاف النيل، هل نزلت إلي العمل .. لا أظن، ربما تكون في السوق.

هي دائما غائبة حاضرة أو حاضرة غائبة، لا يعنيني كثيرا توصيف حالتها معي، فهي حنون لأبعد الحدود، وبقدر حنانها وعطفها وطيبتها فهي قاسية مؤلمة كنار الجحيم، لها وجه لم أره علي أم غيرها يظهر أحيانا بلا سبب أو داع، فتتجلى

عليها فجأة الضغينة والبؤس، ويقطر وجهها غضبا وجحيما عليّ، ووقتها ليس لي حق أن أسألها ما السبب.!!

فأتألم ساكتا .. وتستمتع بألمي في هدوء.

٢

قررت أن أنزل إلي كوبري عباس لحين رجوعها أستنشق نسيم النيل الصباحي قبل أن تدنسه عوادم السيارات، شيء ممتع أن تسكن بالمنيل القديمة بجوار النيل، وشيء مؤسف أن تتحول المنيل إلى وضعها الحالي عما كانت عليه منذ ثلاثين سنة، وينطمس جمالها ويموت اللهم إلا في كلام ليلى التي طالما حكته لي، أما الآن فأسفا عليها، فعوادم السيارات تخالط أنسجة الفرش في البيوت، وضجيجها يزعج بناياتها القديمة.

دخلت إلي غرفتي أبدل ملابسي فتفاجأت بمطفأة السجائر الممتلئة بالأعقاب، ياله من يوم لو نزلت وجاءت ليلى فوجدت هذه الكمية من السجائر التي تراكم دخانها في صدري بعدما وعدتها أنني سأمتنع عن التدخين، ربما تربطني بسور كوبري عباس الحديدي وتجلس على كرسي بجواري تقزقز اللب وتبصق قشره في وجهي لتشهد عليّ المارّة كما أخبرتني مرارا.

فأفرغتها مسرعا في صندوق القمامة في المطبخ، ورششتها (ببر فان) حتى يقضي على الرائحة العفنة المنبعثة من الصندوق بفعل رماد السجائر.

لم أقتنع يوما بأضرار التدخين، فأنا أدخن منذ الخامسة عشرة من عمري. وأنا الآن في عامي (التدخيني) السابع عشر (سن المراهقة)، ربما أموت قبل أن أبلغ سن الشباب بسبب أضرار السجائر من ارتفاع ضغط الدم وأمراض الرئة والجهاز التنفسي وما يصيب عضلة القلب من فشل غير أمراض الأسنان واللثة والصلع كما أخبرتني ليلى مرارا ..

حقيقة أن أغلب هذه الأمراض أشعر بأعراضها في جسدي و أخفي توجعي، لكن حشرجة النفس والكحة المستمرة وأنا نائم تفضحني دائما.

أحيانا إذا أغلق صدري ليلا وصعب علي التنفس تدركني ليلى بكوب من الماء وبعد أن يهدأ سعالي الحاد (الذي يوقظ الجيران كما تقول)، وينتظم تنفسي ـبعد بصقة بلغم ممتلئةـ تصفعني على وجهي وتفرغ ما تبقي من الماء على رأسي صيفا كان أو شتاء، ثم تدخل معي في نقاش حاد وتستعرض علي قائمة بالأمراض التي يسببها التدخين، فأخرج من هذا المأزق بدعابة سمجة كالعادة، فألعن شركات الدخان الجاهلة التي تدعي الأمانة والخوف علي صحة المدخن بطبع علب السجائر بتحذيراتها البلهاء .. لماذا لا تتوقف عن إنتاجها طالما التدخين يسبب الوفاة مع تزايد عدد المدخنين المعرضين للموت كما تقول حتى تعدي الـ ٩,٤ مليون مدخن !!!.

لكنها لا تقتنع، فأسبقها قائلا: أضرار صفار البيض الذي تتناولينه بنهم يوميا كالتدخين تماما، يسبب تصلُّد الشرايين والسكتة الدماغية والأزمات القلبية، وأنا الحمد لله امتنعت عن تناول البيض، أنصحك بالتدخين فذلك أفضل.

رجعت إلى حجرتي ألتقط ملابسي المنتشرة بأرجاء الحجرة، وألملم متعلقاتي المتناثرة كأحجار الطريق في الشوارع الخربة، هكذا أنا دون تكلف إنسان مهمل يعشق الفوضى لأنها تتماشي ذهنيا ونفسيا مع من كان مثلي يعتنق مذهب الكسل والخمول. كانت ليلى دائما ما تنعي زوجتي التي ستكون من قسمتي، وكانت تذكر دائما لكم ستعاني هذه المسكينة من فوضويتي التي لا تنتهي ولا تخلو من شأن من شئوني، لكنها مع ذلك لا يفتر لسانها عن الإلحاح على أذني بحديث الزواج، فكنت أتهرب بأنني أخشى أن أتزوج فأفاجأ بعد فترة أنها غير

مناسبة وبها عيب عضال لا أستطيع معالجته، فتتساءل باهتمام عن العيب العضال حتى تتلافاه عند اختيارها لعروسي ـحتى العروس ستختارها لي مصرة على أنني ما زلت طفلـ فأخبرها مداعبا أن العيب العضال هو أن تكون مثلك ، فتنهال علي ضربا .

كم أنت جميلة ورقيقة وحنونة، لكنني طالما أسأت إليك وعكرت صفو أيامك، لا أدري كيف أسعدك وأدخل البهجة عليك، هل اعتذاري كاف يا ليلى؟ .. لا أظن فما فعلته بك طيلة عمري شيء بالغ السوء معقد الملامح.

أتساءل دائما ماذا تريدني ليلى أن أكونه؟ ومتى تتغير لي ...؟

متى نخرج سويا من هذه الدائرة الصغيرة الدقيقة التي لا تفيد حياتنا في شيء ولا تدفعنا للأمام، ومن عليه أن يخرجنا أنا أم هي ...؟

ومن بيده الدفة في حياتنا الصاخبة التافهة عديمة المعني ...؟

أحيانا أشعر أن حبها يلسعني في صدري، والشوق لها يضطرم في قلبي، لكنني وقتها أتفاجأ بسؤال غريب: هل تحبها حقا؟.

أعجز عن الإجابة ولا أتكلفها حتى لا أدخل في صراع مرير مع نفسي حول ماهية الحب ومقتضياته ولوازمه وما ينزع إليه وما يجتره من سلوك نحو المحبوب.

فأكتفي بالتلهي واحتضانها وتقبيلها إن كانت أمامي وقتها.

دق جرس الباب عدة مرات فأزعجني، فهرولت إلي الباب أفتحة فرأسي بها ما يكفي.

كان رجلا حسن الهندام يبدو عليه أنه ليس مصري، يرتدي بذلة زرقاء عليها علامة تجارية، يبدو أنه موظف بإحدى الشركات.

ــ أهلا وسهلا.

ــ أهلا بحضرتك يا أفندم.

ومد الرجل يده بكل أدب بزجاجة لبن تكفي لأسبوع، وحقيبة بها أسطوانات مضغوطة لأفلام أجنبية وعروض أزياء وكرة قدم وألعاب وغيره.

فقلت مداعبا بصوت منخفض:

ــ ليس بها أفلام إباحية؟

ــ موجودة يا أفندم.

ومد الرجل يده فأخرج اسطوانتين لم تكن يدي قد وصلت إليهما ولم ألاحظهما، بالفعل كانتا لأفلام إباحية، جحظت عيني والتصق حاجبي بأطراف شعر رأسي ولم أجد كلاما، فسكت الرجل ينتظر مني قولا لكنني تحت تأثير ما يحدث فاستأذن وانصرف ..

أفقت من دهشتي وركلت الباب بعقبي، ونظرت إلي اللبن ثم إلى الإسطوانتين وقلت ساخرا:

ــ ليلى تشاهد الأفلام الإباحية!.

ربما ما يغيب عني أكثر مما أعرف.

٣

ارتديت قميص أبيض نصف كم، وبنطلون (جينز) أسود قصير، وحذاء أبيض خفيف أنيق كنت اشتريته من محلات (أديداس) بثمانمائة وخمسين جنيها ما يعادل نصف مرتبي (الرسمي)، وصففت شعري بعناية ودقة، أحرص دائما على أن أبدو بمظهر أنيق جذاب لأكون جاهزا دائما للفاتنات اللاتي أقابلهن فجأة، مسألة معقدة أن يكون الذهن دائما مشغولا بالنساء حتى يصير كالمرض، لكنهن يفرضن علينا ذلك، وهل يتزين ويتعطرن ويتأنقن إلا لنا!.

لكنني أسرف في ذلك أيما إسراف، اتهمتني ليلى بداية أنني نرجسي، وانتهي الأمر بأن سبّتني ووصفتني بالمخنث.

لا تفهم ليلي أننا في مجتمع مفتوح، فلكل شاب الآن مطربه الأجنبي المفضل الذي يحاكيه في كل شيء، ملبسه ونرجسيته وطريقة كلامه وعلاقاته المتعددة، وكذلك لكل فتاة امرأة تحاكيها وتطبع بطباعها كاملة سواء كانت من تحاكيها مطربة أو ممثلة أو راقصة، المهم عندهن أن يبدين فاتنات، ولهن أسرف في التنمق.

مددت يدي إلى المكتب التقط نظارتي الشمسية وهاتفي المحمول وسلسلة المفاتيح فتفاجأت بالنتيجة تشير إلى الرابع والعشرين من شهر فبراير لعام ٢٠٧٦، فجحظت عيناي وزاغت لثوان، وتوقف ذهني عن التفكير وتجمّدت أعضائي، ما هذا العبث الذي أراه، بلا شك أنا مستيقظ غير نائم، أُدرك الأمر بلا لبس ولا غبش بفعل النوم، هل هذا معقول؟!.

فركت عيني عدة مرات ولدغت يدي ولطمت وجهي، لكن شيئا لم يتغير، اتجهت إلي المطبخ فأفرغت زجاجتين من الماء المثلج على رأسي وعدت فأمسكت بالنتيجة فقلّبتها؛ فأشارت الورقة التي بعدها والتي بعدها والتي بعدها إلى تتابع التاريخ وتسلسله بانتظام وبصورة طبيعية، فهرولت إلى النتيجة المعلقة في الصالة فوجدتها تشير إلى أمس وتاريخ أمس لكن بنفس العام، يبدو أن ليلى قد نست نزع هذه الورقة، وتوقف تفكيري عند ليلى: هل لو صدقت هذه التخاريف الصباحية أتكون ليلى على قيد الحياة؟.

كيف يكون هذا العبث حقيقي وموضوعي؟، لقد نمت بالأمس وكان اليوم هو يوم الأحد والشهر هو شهر فبراير لكن العام كان ٢٠١٠.

واستيقظ اليوم وقد مرّ على نومي جيلين كاملين، ستة وستون عاما!

أخرجت هاتفي من جيبي لأتصل بليلى كي أطمئن عليها فلم أر وجود لشبكة الإتصال، حاولت مرارا لكن بلا جدوى حتى انتهى الأمر بأن توقف الهاتف عن العمل بسبب فراغ البطارية.

اتجهت إلى التلفاز وقمت بتشغيله وأنا في حالة من الاضطراب والقلق والوجل كمن ينتظر سماع أسوأ خبر في حياته، وكلّي أمل ورجاء ـيسع أهل الأرض كلهمـ ألا يتأكد هذا الظن الخبيث المميت، أو أسمع هذا الخبر بيقين، لكن لا وجود للقنوات المصرية بالتلفزيون الحكومي، كلها قنوات فضائية بأسماء لم أعهدها، حتى الرئيس الذي كان يظهر على الشاشة في الأخبار، حتى مجلس الوزراء المجتمع معهم الرئيس لم أرهم من قبل، وأنا صحفي فكيف لا أعرفهم !!!

فتحت ستائر غرفتي وستائر الصالة فغزا الضوء كل أرجائها فوجدت مكانا غير المكان، ودنيا غير الدنيا ...

دارت بي الأرض دورتها، وخارت قواي وبهتت الدنيا من حولي في عيني، فارتكزت بمرفقي على ركبتي ووضعت رأسي بين كفي أفكر: هل لقرصين من (الترامادول) تناولتهم أمس وسيجارة حشيش قادرين على أن يدخلوني إلي مدينة الهلوسة من أوسع أبوابها بلا مقدمات .. لا لا فأنا أتناول هذه الحبوب منذ زمن وكذلك الحشيش والبانجو ولم يحدث شيء كهذا من قبل.

انتفضت متجها إلى سطح البيت أنظر إلى الدنيا لأرى إلى أين وصلت، كان مبني ماسبيرو على مرمي من البيت أستطيع أن أراه لا يعترض رؤيتي له شيء، هو هو نفس المبنى، لكنني رأيت لافتة كبيرة فوقه لا تزال مضيئة بألوان متعددة، تشير إلى اسم سوق تجارى بحروف إنجليزية واسم إنجليزي لم أتبينه، فتحولت بنظري ولم أفق من دهشتي بعد، وجلست على كرسي بال أحاول استيعاب ما حدث وأحاول ترتيب ذهني من جديد لعلي أستطيع توصيف الوضع حتى يقنع ذهني المرهق بتعليل لما أرى.

وما هي إلا لحظات ورفعت عيني وأشحت بنظري الساهم إلي الأمام حتى رأيت كوبري عباس المعلق، نعم يمكنني أن أقول عنه ذلك، فقد كان كوبري عملاق يمتد على سطح النيل في عظمة وشموخ، أعظم وأجمل من كوبري السلام، ولكن كيف ذلك، فقبل أن أرجع إلى بيتي بالأمس مررت به وتحرشت بإحدى الفتيات ومضينا معا إلى حديقة نادي الإعلاميين المجاورة للكوبري، كنا نراه بوضوح من أسفل، لكن ماذا حدث، ماذا حدث فأنا على وشك الجنون!.

لا وجود للمنيل التي أعرفها، ولا للمناطق المجاورة التي امتدت لها عيني، فأغلب المناطق السكنية تحولت بناياتها إلى ناطحات تشق السحاب عدا بيتنا، كانت واجهاتها تتلألأ مع شروق الشمس، أغلب ألوانها بيضاء كبياض الثلج المبهج.

رجعت إلي الشقة وأخرجت زجاجات ماء مثلج فأفرغته على رأسي مرة أخرى، حتى تصدّعت وجعا، وغسلت عيني بها حتى كادت مقلتي أن تتكسرا لتجمدهما فلم يتغير شيء، كل شيء كما هو.

دق جرس الشقة فهرولت إليه وفتحته، كان شابا لا يختلف كثيرا عن سابقه الذي أحضر اللبن والإسطوانات المدمجة، يحمل جرائد ومجلات عدة على ذراعه الأيسر، وكانت يمناه جاهزة بما سيعطيه لي، فمد يده فور فتح الباب بعد القاء تحية الصباح وابتسامة عريضة اتسعت بها شفتيه.

لم أرد تحيتة ولم أقابل ابتسامته بنظرة هادئة، أخذت منه ما امتدت به يده وانصرفت للداخل وتركت الباب مفتوحا سهوا مني، وسرت باتجاه نافذة الصالة ثقيل القدمين أتابع المجلات والجرائد ..

تصفحت العناوين الرئيسية بنظرات عابرة فلم أظفر بشئ، أغلبها عن اتحادات الدول الكبري واستثماراتها في مصر (الجديدة).

رميت من يدي جريدة تحمل اسم: الأهرام الجديد، وتساءلت: أين الأخبار والأهرام والجمهورية!.

لم يتبق في يدي بعد القاء الجرائد والمجلات سوي مجلة واحدة تحمل اسم: غادة!.

ففتحتها من الداخل وتصفحتها، كان أغلبها صور فنانين وفنانات لا أعرفهم، حتي وصلت إلي مقالة على ظهر الغلاف للكاتبة غادة ياسين بعنوان: قصة زواجي.

غادة يا سين كاتبة؟!.

وتزوجت ؟!.

أي ديوث تزوجها؟.

تركت أقضبة الرجال وملاءات الفنادق البيضاء وأمسكت بالقلم والورق!

لو خلق الله للقلم لسانا يتحدث به، لقال لكثير ممن يحملونه: لعنكم الله.

مررت بعيني في عجالة على سطور المقال حتي وقعت عيني على اسم زوجها الديوث الذي ارتضي لنفسه أن يكون زوجا شرعيا لها .. كان أنا!

سقطت المجلة من يدي وتجمع كل صخب الحياة من حولي بداخلي، فكأن الكون سكن وهمد وأرسل لنفسي ما يزعجه ويضجه، فاكتظت نفسي بكل معاني الغضب والسخط وخرجت مجتمعة من أحشائي في صرخة عاتية عنيفة كأشد ما يكون انفجار البراكين ..

ونزلت مسرعا إلى الشارع كالمجنون أو المجنون مثلي .. لا يهم، لكن ما حدث ويحدث هو الأهم، فمضيت مسرعا أخشي أن أتفاجأ بأي شيء يؤكد مخاوفي المترددة في صدري كفأر بمصيدة، وكان قلبي ينتفض ويرتجف، وتسبح برأسي الظنون السوداء حتى أنهكت عقلي وفتتته.

رأيت من الحكمة وقتها أن أقف بضع دقائق ألتقط أنفاسي الهوجاء حتي تهدأ وأستطيع التصرف بعقل ما استطعت حتي لا أرتكب حماقة في هذا المجتمع الذي لا اعرف عنه شئ حتي الآن.

كان الطريق ـعلى كثرة السيارات بهـ إلا أنك لا تشعر بالزحام، رجال المرور يرتدون زيّا لطيفا غير ما ألفتهم به، الطرق نظيفة، دُهنت البنايات بألوان زاهية بديعة، أعمدة الإنارة مزينة، عليها أعلام مختلفة ناصعة وليست ممزقة كالعادة، و لا عوادم تنبعث من السيارات وكأني (ببلاكهيث) وليس المنيل.

لكن بعض الناس لا زالوا كما هم لم يتغيروا قيد أنملة، استوقفت أحد الباعة الجائلين لأسأله، كان رجلا أشيب الرأس والشارب، يربو على الستين من عمره، ولكن عن أي شيء أسأله!، فترددت .. وبعد تفكير قررت أن أسأله سؤالا مهما سيتوقف عليه الكثير ويحفظ ماء عقلي، ثم أسأله السؤال الأهم وعليه يتوقف الأكثر ..

ــ لو سمحت ، أين نحن الآن؟.

فقال الرجل بعدما تلفت عن يمينه ويساره وقد بدا عليه الخوف مني:

ــ الست من هذه المحافظة؟.

فقلت متخابثا:

ــ لا لست من هنا.

وبشيء من التبرم والاستعجال أعدت عليه سؤالي لِما رأيت منه من برود وعدم اكتراث أعقب تخوّفه مني وكأنما اطمأن لشيء أجهله:

ـــ قل لي من فضلك أين نحن؟.

فقال الرجل ببلادة أشعلتني أكثر:

ـــ أهدأ يا بيك، مالك غضبان الصبر جميل، هي الدنيا طارت!.

لم أتمالك نفسي، وخشيت أن أعامله معاملة ليلى لي عندما تغضب، فذهبت عن وجهه وأنا أقول بعصبية:

ـــ طارت جدا .. طارت خالص .. ارحمني يا رب.

وأوقفت رجلا آخرا، كان شابا ظريف الشكل، هيئته تدل على أنه من سكان المنيل

ـــ لو سمحت يا (كابتن) ..

فالتفت إلي مندهشا وكأن الكلمة أساءت لشخصه:

ـــ (كابتن)؟!.

قلت في نفسي أن هذه الكلمة كانت منتشرة منذ ... لا، لا أريد أن أصدق كل هذه التلميحات من عقلي أن هذا الواقع الذي أراه واقع بالفعل مهما كان، فاعتذرت عن كلمة يا كابتن وأعدت عليه سؤالي بنبرة هادئة راجية:

ـــ أين نحن الآن؟.

فضحك ساخرا وهمّ بالانصراف ضاربا كفا بكف، فاستوقفته ثانية مستعطفا:

ـــ لو سمحت أخبرني أين نحن؟

فانتفخت عروقه غيظا ـلا أدري لماذاـ وقال:

ــ وأين كنت تقصد قبل وصولك إلى هنا؟.

فسكت، وتجمدت الكلمات على شفتي، فنظر إلى في سخرية وابتعد عني بضع خطوات، فقلت بصوت مرتفع غاضب:

ــ و هنا الذي تقصده ما هو .. ما اسمه .. هذا المكان اللعين ماذا تطلقون عليه الآن ..

فالتفت إلى وهو يتابع سيره دون أن يقف، وقال بصوت مرتفع أكثر من صوتي:

ــ لعنة الله على المخدرات التي أفسدتك وأذهبت عقلك أيها الشقي، عُد إلي المستعمرة التى لفظتك إلي هنا فذلك أفضل لك يا (درجة ثانية).

وما إن سمع المارين بجواري بكلماته حتى ابتعدوا عني في ذعر وخوف.

فاستندت إلي جدار المسجد القائم بقلب الميدان أتابع حركة الحياة بعين ذاهلة وكأنني لست حي، أتفرّس الناس وكأنني لست منهم، وأنظر إلى ما يحملون من متعلقات، كان بعضهم إذا مرّ من أمامي يهرول مسرعا خشية أن أكون لص، فأخذت أصغي سمعي لحديثهم، فكنت أسمع كلمات متفرقة لا تصيغ جملة أفهمها عن شيء بعينه، إلا أنني سمعت فتاة تحدّث امرأة مسنّة تسير بجوارها على ما يبدو أنها أمها، وسألتها عن شيء سمعته في المدرسة عن عجائب الدنيا السبع وعن الأهرامات المصرية، فبدأت الأم كلامها بضحكة استنفذت بضع خطوات كانت كفيلة أن تبعدهما عنّي، فلم أفهم لكلامها معني لاختلاطه بصوت الشارع .

كانت ملابسي فخمة إلى حد ما ربما تفوق ملابس من رأيت وتحدثت إليهم ، لكن حالة من الرهبة كانت تنتاب الناس مني أحيانا، ربما لأنني بالفعل لست من هنا وأن هناك اتصال لا شعوري يربط "مصريين" الدرجة الأولي ببعضهم فيميزهم عن "مصريين" الدرجة الثانية فيعرفون بعضهم البعض ويلفظون غيرهم، كما نتعرف نحن على سكان شرق أسيا بمجرد النظر إلي الوجه.

وظللت على حالتي من الترقب والمتابعة، فمرّت من أمامي امرأة عجوز تجر أزمانا في أذيالها، مجعدة الوجه بشدة، يتناثر شعرها الخفيف الهائش الأبيض بياض الثلج من أسفل حجابها الضعيف المنزوي عن رأسها للوراء، فحدجتني بنظرة استهزاء، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وهي تقول لي: أهلا.

ضيقت عيني حتي التقت من ركام الذاكرة خيطا يصلني بهذا الوجه لأتعرف عليه، حتما أظن أنني أعرفها، فهممت بالقيام لأتبعها فأشارت بعصاها في صدري وهي تقول: مكانك.

مضت العجوز وتركتني حائرا فريس الذكريات، مررت بكل ثغرات الذاكرة أنقب عنها ففاجأني صوتها من بعيد وهي تضحك بسخرية: نفس المكان!

تذكرتها الآن، في عصر ما قبل النوم، وفي بداية عملي بالصحافة كنت بقسم الأزبكية أتسول أخبار من أمناء الشرطة والضباط، رأيت هذه السيدة بين يدي أحدهم تبكي وتستعطفه أن يبحث عن ابنها ابن الخمس سنوات، والذي تاه منها، كان الأمين سئ المزاج حاد الأعصاب في ذلك اليوم، حتي أنا لم أقربه وانتظرت انتهاء نوبتجيته لأصل لما أريد، فسبها ودفعها خارج القسم لما ألحت عليه لأنها حررت المحضر من اثني عشر يوما ولم تصلها أخبار.

ارتمت بالقرب مني، استندت على مرفقها لثقل همها وحزنها حتي تصل الي، تلهيت في كوب الشاي وقطع البسكويت التى أقضمها على مهل وأقضم الوقت معها حتي يمر. جلست بجواري وكلمتني عن ابنها، عرفت منها أنه وحيدها من رجل طلقها وهو في بطنها ولم تتزوج، وعملت على تربيته وتعليمه حتي يكون إنسان "محترم" بين الناس وليكون سندها، أبديت بعض التأثر المشوب باستثقالها، وللأسف أفلتت مني كلمة عرفت بعدها أنني صحفي، فطلبت مني مساعدتها ونشر صوره في الجريدة، وأعطتني صورة له، قالت أنها الصورة الوحيدة له عندها، كان طفلا جميلا، في عينيه ذكاء وتطلع، فوعدتها وأنا لا أنوي الوفاء، ماذا سأستفيد منها ومن مساعدتها .. لا شئ!.

الأمين الآخر لن يأتي اليوم إلي القسم لأنه توجه إلي مأمورية، ربما يكون ذلك هو سبب غضب الأمين الذي أتحاشاه، فقمت وأعطيته بطاقة بها أرقام هواتفي ليعطيها لزميله اللين وقتما يحضر، لم ينظر فيها، وضعها جانبا ورمقني بنظرة حادة، ربما كان يلعنني ويلعن الصحافة في نفسه، ثم انشغل في سب احد العساكر ثم اتجه نحوه وأدخله إحدي الغرف فسمعت فرقعة صفعات فمضيت مسرعا، والقيت على السيدة ابتسامة باهتة لم تنتبه لها، كانت تحدّق إلي البطاقة على مكتب الأمين.

مرّت بضع ايام واتصلت بي على هاتفي أكثر من مرة فطمأنتها كذبا، لم تكن تعلم أن ما غضت عنه الشرطة نظرها لن تلتفت له الصحافة، ولم تكن تعلم أن الصحافة هي إحدي غرف القسم التى صفع فيها العسكري المسكين.

لكن .. من يهدّئ روعها .. ومن يؤمّن خوفها .. ومن يرد إليها وحيدها .. بالطبع لست أنا!.

طلبت من الزملاء في صالة التحرير ألا تصلني منها مكالمة، وأن يخبروها دائما أنني لست موجود وأيضا طلبت من شركة الإتصالات تفعيل خدمة حجب الأرقام غير المسجلة على هاتفي، لكن زميلة "طيبة القلب" أعطتها عنواني!.

أتت إلي الشقة، لم تكن ليلي موجودة، فقمت وقبل أن أفتح نظرت على غير العادة من عدسة الباب فرأيتها فلم أفتح لها، فمضت. وبعد أيام أثناء عودتي من الجريدة وجدتها تنتظرني .. هنا .. أمام المسجد .. نفس المكان كما قالت!.

صرخت في وجهها بعنف، ونهيتها عن انتظاري .. الإعلان مكلف، هل معك ما يكفي لإعلان في جريدة؟ أنا فقير ..، إذن دعي ابنك لقدره حتي يتوافر معك المال للبحث عنه.

لا أدري لما ينجب هؤلاء، لا يمتلكون المال الكافي للزواج ومع ذلك يتزوجون، يعيشون حياة بئيسة كئيبة أقل من حد الكفاف فيزيدون الأمر بؤسا فينجبون، كمن يضئ في ليله الأسود الحالك مصابيح سوداء، وليس معهم ما يكفي ليقيم أودهم ولا علاج أطفالهم أو تعليمهم!.

لا أدري الآن أوجدت وحيدها أم ضاع في الزمن المجهول، ربما لم تجده وفي قلبها جمر الإشتياق له مضيئة حارة تحرقها، لكن ما أعرفه الآن جيدا أنني مثلها في ذلك الوقت، تائه ضائع، بلا أرض ولا سماء ..

فزعت ليد عنيفة طرقت كتفي بقوة، فالتفت فإذا بضابط طويل عريض، أحمر الوجه، أشقر الشعر، أزرق العينين، فقمت واقفا وسألته:

ـــ من أنت ؟ وماذا تريد؟.

فقال بلهجة مصرية متكسرة الحرف متشتتة، يجمعها في حلقه بصعوبة حتى يستطيع النطق بها:

ــ ما الذي أجلسك هنا، ألم تعلم أن التسوّل ممنوع في هذه المنطقة، وبهذا فأنت تعرض نفسك للسجن، أين تصريح خروجك من المستعمرة؟.

كان الموقف لا يحتمل جدال ولا صدام، أي مستعمرة يقصد وأي تصريح يريد!..

اعتذرت على الفور، ومضيت إلى كوبري عباس المعلّق، لأسير علي إحدى جانبيه لكنني لم أستطع، فلم يعد له طوار كما كان قبل عصر النوم، كذلك ما ثمّة باعة جائلين هناك، ولا عربات حمص الشام التي يتركها أصحابها لليوم التالي، العبور فقط من خلال السيارات، فاستوقفت إحدى سيارات (التاكسي) فبادرني بالسؤال المعتاد عن وجهتي، فأخبرته آخر كوبري عباس.

فقال الرجل :

ــ وأين كوبري عباس يا بيك؟.

فاندهشت وغلت رأسي كالمرجل حتى كادت أن تنفجر ..

ــ هذا الكوبري الذي نسير عليه الآن!.

فتساءل الرجل وهو يشعل سيجارته ويلقي بعود الثقاب خارج السيارة:

ــ من أين أنت يا أستاذ؟.

فتلعثمت في الرد، لكنني قلت بلهجة ثابتة بعض الشيء:

ـــ لست من هنا.

فقال الرجل وكأنه فهم شيئا:

ـــ آه فهمت.

ـــ وماذا فهمت؟.

ـــ لا شيء .. يبدو أنك لست من هنا.

فقلت مغيظا:

ـــ نعود إلى الكوبري، ما اسمه؟.

فقال الرجل:

ـــ هذا كوبري مدريد.

فقلت بصوت مرتفع:

ـــ مدريد!!.

ـــ نعم يا بك.

ـــ لماذا؟.

لكن الرجل لم يسترسل معي في الحديث وتابع طريقه، فوجمت ولم أنبس بكلمة، وطالعت الكوبري فكان بناء فريدا في تصميمه وتنفيذه المبهر، فعلا يدل على

عظمة المهندسين المصريين من حيث نظافته البراقة، والإعلانات المبدعة على جانبيه، لكنني لم ألحظ شعار: المقاولون العرب كالعادة!!.

ولم نكد نصل إلي نهايته حتى سألني:

ــ أين تريد أن نتجه يا أستاذ وأين كوبري عباس؟.

فقلت ساهما و بصوت منخفض قليلا:

ــ لا تشغل بالك بعباس ولا بكوبري عباس، يبدو أنه يجدر بي الترحم عليه وقراءة الفاتحة، فليرحم الله عباس.

تساءل الرجل:

ــ على من تقرأ الفاتحة يا أستاذ ؟ ليرحم الله موتانا جميعا.

ـــ لا تشغل بالك سأنزل في مدخل ميدان الجيزة.

تنهد الرجل متبرما وتساءل:

ــ يا أستاذ قلت لك أين تريد أن تذهب؟

فرددت بعصبية مفرطة:

ــ لا تنعطف، فقط أنزلني عند مدخل ميدان الجيزة.

فأوقف الرجل التاكسي والتفت إلي بجسمه كله، وقال في غضب عارم بعد زفرة هواء حارق آتيا من أعماق صدره الضيق:

ـــ لن أتحرك خطوة واحدة قبل أن تخبرني أين ميدان الجيزة المزعوم؟، لقد قضيت هنا عمرا كاملا ـثلاثون عاماـ ولم أسمع عن الجيزة ولا ميدانها.

تجرعت الصدمة ورميت رأسي للخلف مستندا على مخدع الكرسي وأنا أقول:

ـــ أنزلني بعد الكوبري.

وما هي إلا دقائق حتى أيقظني من غفوتي قائلا:

ـــ انتهى الكوبري يا أستاذ، هل تود الذهاب لأي مكان آخر؟.

ـــ لا شكرا.

فردّ بعد تنهد عميق كأنما ألقي حملا عن كاهله:

ـــ الحمد لله.

ونزلت إلي الشارع أقلّب جيوبي فوجدت بها مبلغا حسنا فأعطيته عشرة جنيهات فأمسكها الرجل وأخذ يقلبها وردد بصره بينها وبيني بعين جاحظة قد احمرت من الحنق وقال:

ـــ ما هذا؟!.

فقلت بتلقائية:

ـــ الأجرة.

فرددها بعدي باستنكار وبصوت مرتفع:

ـــ الأجرة! دع يومك يمر بسلام وإلا فعلت بك ما يفعل بأمثالك في هذه المواقف.

فتساءلت بتلقائية أيضا:

ـــ ماذا يضايقك إلى هذا الحد، هل المبلغ غير كاف بالنسبة للمسافة؟.

فنزل من سيارته ومرّ حتى وقف أمامي مستأسدا:

ـــ يبدو أنك لا تريد أن تمضي إلى بيتك بسلام.

وشّمر ذراعيه وقال مهددا بضربي:

ـــ ماذا تختار؟.

كان طويلا جسيما قويا، إن هوت قبضته على وجهي لطارت رأسي عن جسمي، فقلت منهيا الحوار الذي لا أفهم منه شيئا:

ـــ حسنا، كم تريد؟ عشرون، ثلاثون، خمسون، خذ ما يرضيك ودعني أذهب.

ومددت له كلتا يدي بكل ما معي من مال ورقي وحديدي، فاغتاظ الرجل أكثر وقال وهو يهم بلكمي:

ـــ جنيت على نفسك يا روح أمك.

فتفاديت لكمته بخفة، وقلت وابتسامة مصطنعة على شفتي كأنني أروّد حيوان مفترس:

ـــ اهدأ .. قل أنت ماذا تريد وأنا أعطيك؟.

ـــ عشرون دولارا.

فاتسع وجهي ممتلئا بذهوله ودهشته:

ـــ دولار!!.

فقال الرجل ولم يفطن لسر دهشتي:

ـــ قلت عشرون دولارا وليس "دولار".

وانتظرني أدخل يدي في جيبي وأخرج له الدولارات لكنني لم أفعل ..

فأردف قائلا وقد ضيق عينيها وهز رأسه ساخرا منّي وقد أيقن ـبفتوتهـ انتصاره مقدما:

ـــ ستدفع أم ..

وكوّر يده ورفعها في الهواء ولوح بها يهددني، لكنني لم أدع له الفرصة، بل قمت بما يتوجب عليّ فعله في مثل هذه المواقف المحرجة، جريت هربا منه بكل ما تملكه قدمي من طاقة، فتابعني لمسافة طويلة في ميدان الجيزة ـعلى حسب معلوماتي القديمةـ حتى كاد أن يمسك بي، لكنني نجحت في التملص منه، وما عاد به القهقرى سوي خوفه على السيارة، فوقف سابا شاتما متوعدا أنه حتما سيلقاني وسيقتص مني.

لعنة الله على التدخين ، كدت أن أُصب بذبحة صدرية من فرط إجهادي.

٤

انتهيت إلي مقهى (إليزابيث) بقلب ميدان الجيزة، هكذا كان اسمه في لافتة عريضة تمتد على واجهته لأربعة أمتار بحروف حمراء على رقعة بيضاء، فجلست التقط أنفاسي وأنا ألهث. جاءني النادل فطلبت شاي، وأخرجت سجائري فأشعلت واحدة، وأدرت بصري بالمقهى، فكان نظيفا مرتبا منمقا، لم يخف عني طرازه الأجنبي حيث هيئة الكراسي وألوانها البيضاء الجميلة، وشاشات العرض الكبيرة التي تذيع قنوات أجنبية باللغة العربية، وبُسطه الوثيرة الرائعة، وكأنني في معرض مستلزمات عرائس، تحول بصري نحو الميدان وجاشت بداخلي مشاعر الحنين إليه، وتتابعت ذكرياتي في هذا الميدان التي امتدت سنين من عمري، أري الآن زحامه الذي لا ينفض، وأسمع ضجيجه الذي لا ينتهي، ويتردد بأذني الآن صوت الباعة الجائلين، بل أراهم يفترشون جنبات الميدان على امتداده بالجوارب والمقصات والولاعات الصينية وميداليات المفاتيح الشخصية، وأشحت ببصري تجاه من ينادي على السيارة معلنا اتجاهه صوب الهرم، وآخر يقول الطالبية، وثالث ينادي فيصل والملكة، وشدّ ذاكرتي مسجد الاستقامة الذي طالما اشتريت من أمامه الأقراص المضغوطة المزيفة لأحداث الألعاب الأمريكية، كانت لا تعمل في أغلب الأحيان لكن المهم أنها كانت رخيصة الثمن، كانت الواحدة بجنيهين. لكن الآن خلا الطريق أمام باب المسجد وذهب الباعة إلى غير رجعة، ورفعت بصري تلقاء المئذنة وقبل أن أصل إليها ببصري وجدت لافتة مكتوب عليها اسم المسجد بحروف عربية لكني لم أفهم الكلام المكتوب، فصرفت بصري حتى لا أسقط مغشيا علي، وجذب بصري صياح أحدهم على الجانب الآخر وهو يقول

إمبابة وراق أرض اللواء المهندسين أسفل مبني عمر أفندي ... يالها من ذكريات ولّت.

تكهرب الخاطر في رأسي فجأة وصعقت، عمر أفندي! دققت النظر أكثر .. نايت كلوب! قرأت الاسم فإذا هو نايت كلوب أميرسون! .

أيقظتني لسعة السيجارة التي انطفأت في إصبعي، كان النادل أمامي يضع الشاي على المنضدة فضحك، وقال وهو ينصرف:

ـــ انتبه!.

ارتشفت بضع رشفات من الشاي، وأشعلت سيجارة أخري، وندّت عن شفتي ابتسامة ساخرة لا أدري سببها، أمن الواقع كانت أم منّي؟، وتسلل اليأس إلي نفسي وجفّ طعم الحياة في حلقي، وأخذ دبيب الغربة يقرع قلبي بشدة وكأنني ببلد لا أعرفها ولا أستطيع مفارقتها، وها هي خيالات الماضي البعيد أو القريب ترهق روحي، وتشتد على ذاكرتي الذكريات، فالمقاهي لها حياة مفردة في حياتي، لا أتذكر أنني جلست على إحداها بمفردي من قبل، دائما كنت مع صديقي جمال ليثي الشاب المصري الأصيل الذي كان دائم التظاهر ضد الحكومة وفعالها التي ترهق الفقراء بسياساتها الفاسدة، وضد سياسة الدولة الخارجية المزرية، فيندد في مظاهرات الجامعة بموقف البلاد البليد من القضايا العربية، كقضية فلسطين والعراق وغيرهما، لذا كان دائم الاعتقال والتغيّب خلف القضبان، ولّما نصحته بخبرتي وقربي من المطبخ السياسي ـحيث طبيعة عملي كصحفي اقتضت ذلكـ أن يبتعد حتى لا تلفق له قضية نهائية تكون فيصلا في إزعاجه المستمر للسلطة، كان يرد باستهانة ويقول بعدم اكتراث: أنه وأمثاله لا

يعملون لأنفسهم، ولكن يعملون للأجيال القادمة حتى تري النور بلا قيود ولا أغلال.

إن الأغلال بداخلنا كجبل جليدي عصي على ألف شمس أن تذيبه جرّاء تربيتنا السلبية على الخوف من السلطة الحاكمة ومواجهتها بأخطائها.

ماذا لو رأيت الحال الآن يا صاحبي، فليرحمك الله يا صديقي، فأظنك الآن تحت التراب ولم تشفع تضحياتك ومظاهراتك بشيء وآلت إلي لا شيء .. صفر.

وفردت كفي أقرأ على روحه الفاتحة، ثم مسحت وجهي والتقطت السيجارة من المطفأة التي أوشكت أن تنقضي، وتابعت رشف الشاي بتمهل، ثم تردد في أذني ذلك الصوت الساخر دائما الذي لا يُسمع الجد في حرف منه إلا امتزج بالسخرية اللاذعة، صوت صديقي على حسنين (الطالب بكلية التجارة)، كنت تعرفت عليه ونحن لازلنا طلبة بجامعة القاهرة، انطلق صوته في نفسي معلّقا علي الشاي حينما جلسنا ثلاثتنا أنا وهو وجمال على مقهى بالزمالك، وجاءنا النادل فطلبنا شاي فقال: أتدرون كم تنفق الدولة على استيراد الشاي والقهوة وأكل الكلاب و القطط، ثم تابع ساخرا: إن الدولة تنفق المليارات على (كيف) الشعب وتتجاهل رغيف الخبز، فدولتنا تنتهج سياسة فريدة في الاهتمام بالمواطن، سياسة تبدأ من أعلى إلي أسفل؛ لذلك فهي تهتم بالرأس أولا فتغرق السوق بالمشروبات المنبّهة والمخدرات المسرّبة من الحدود، ثم تنتقل إلي الصدر فتنفق المليارات على التدخين، ثم تجتاز منطقة البطن بلا أدني اهتمام فتصل إلي المنطقة الجنسية للمواطن فتنفق المليارات على الفياجرا.

بالطبع كنت فاكهة أي لقاء يجمع بيننا حيث إنني محسوب ـبحكم عمليـ على النظام كما يري جميع الأصدقاء، وكنت أيضا المتنفس لهما سواء سياسيا بالنسبة

لجمال الليثي، أو اقتصاديا لعلي حسنين. وفي أحيان كثيرة كنت أضيق بهما، إذ اعتقادهما نبّه بداخلي فعلا أنني ممثل السلطة لدي المعارضة التى يمثلانها في جلساتنا، وبطبيعة الحال فالسلطة التى تجد معارضة ذات شوكة إما أن تستأنسها ـوما أكثرهمـ وإما أن تكسرها أو تلهو بها. فأمضيت صداقتي معهم وكأنني أشاهد فيلما بالأبيض والأسود مع إني أبغض تلك الأفلام ولكني اشتاق إليها كل حين ككسر للملل والرتابة التى تحدثها الأفلام الأمريكية التى أدمنتها.

ابتسمت ساخرا وطأطأت رأسي أسفا علي تلك الأيام، وجال بذهني سائق التاكسي وما كان بيننا، لكن كلمة واحدة ظلت تتردد برأسي كأنها قيلت أسفل قبو نحاسي: دولار!.

هدأ روعي وتبددت دهشتي من كلمته، فالتعامل بالدولار كعملة بديلة عن الجنيه كان أمرا متوقعا ـبالنسبة ليـ أنه سيحدث يوما ما، فلطالما تندرت به ساخرا وأنا أتابع الأخبار الاقتصادية التي تبشر المصريين دائما بأن حالة الاقتصاد غاية في السوء لارتفاع سعر الدولار ..

فكل صادراتنا وارداتنا بالدولار، غذاؤنا ودواؤنا وسلاحنا بالدولار، كل الشعوب كتب قدرها في اللوح المحفوظ، أما نحن فقدرنا كتب في البيت الأبيض على الورق الأخضر.

ذات مرة حضر إلي مبني الجريدة بعض الشباب الجامعي المتحمس لفكرة اقتصادية يحدوهم فيها العاطفة الوطنية والشعور بالنكسة الوطنية معا .. طلبوا مني نشر تحقيق عن قناة السويس والمطالبة بتحصيل رسومها بالجنيه المصري بدلا من الدولار، وانتهي اللقاء بيني وبينهم الذي امتد نحو ساعتين واعدا إياهم بنشر تحقيق عن قناة السويس عن قريب، وقبل المغادرة قال لي أحدهم: هي مجرد

محاولة لكسر إحدى القضبان في شرّاعة الزنزانة الأمريكية التي أُجبرنا على المُكث فيها لعقود طويلة، ومحاولة لرفع قيمة الجنيه المصري.

أكدت مرة أخري أنني سآخذ طرحهم مأخذ الجد، وجلست متفكرا هنيهة ثم أترعت شفتي بابتسامة ساخرة من هذا الطرح، مجرد أفكار عاطفية لن تقدم ولن تؤخر، الشباب الحالم يرجو الفكاك من القبضة الأمريكية! هه .. يال السذاجة الوطنية، ليس تحدي الجنيه للدولار في رقصة غبية كرقصة الديوك هي التي ستجعل لنا كلمة أو سترفع من اقتصادنا الهش القائم على المعونات وفي مقدمتها المعونات الأمريكية، ولكن نهضة أي دولة وتقدمها تكمن في كلمة واحدة: تحرير الإرادة.

فهل نستطيع تحرير إرادتنا المكبلة في سور البيت الأبيض؟.

لكن لم يكن بد من نكث الوعد، ففي اليوم التالي كتبت تحقيقا بعنوان: خطورة تحصيل رسوم القناة بالجنيه على الاقتصاد القومي .. فلو فعلت غير ذلك وتّمنت الفكرة التي أري أن لها وجوها متعددة جيدة لفصلت من عملي بلا جدال أو نقاش، ولوجدها سعيد حتحوت فرصة سانحة للنيل مني، وهذا مالا أسمح به أبدا.

وتخيلت منظر الشباب بعد قراءة التحقيق!، لكن مرارة السباب والإهانة التي تخيلتها منهم غسلتها عني مكافأة صغيرة جاءت عقب مكالمة تليفونية من مسئول في الحكومة لسعيد حتحوت يشيد فيها بنباهة الصحفي الشاب.

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة، فاشتدت الشمس وانتشرت سهام الحر في أرجاء الميدان، وتحشرجت سماعات المسجد الخارجية معلنة أن المؤذن سيرفع آذان الظهر، فوضعت يدي على قلبي وارتبت خوفا من صاعقة جديدة تخرج من

المسجد، إذ يؤذّن بغير اللغة العربية على الطريقة التركية أيام أتاتورك، لكن الله سلّم، وانطلق الآذان قائلا الله أكبر الله أكبر، فانتفضت من مكاني وما كاد الكرسي ليسع بهجتي وفرحتي حتى لفظني وأنا ألوح بيدي وأقفز على الأرض مرددا خلف المؤذن:

الله أكبر الله أكبر.

فنظر إليّ الجالسون في ريبة وآخرون في اشمئزاز، ولسان حالهم يقول كيف يتعامل ذلك المعتوه بهذه الطريقة مع الآذان الجليل!، فهدأت وعدت إلي مكاني كما كنت فرحا مسرورا أحتسي الشاي وكأنني أحتسي عسل الجنان، حتى انتهي إلى: أشهد أن محمدا رسول الله ...

فرددت خلفه وصلّيت علي النبي محمد صلي الله عليه وسلم، ثم أتبعها المؤذن قائلا: وأشهد أن علي وليّ الله، فسكنت الفرحة في نفسي وارتخي جسدي وتهدّي يدي، وأطلقت آهة ممزوجة بالوجد والحزن والأنين وبكيت وانتحبت ..

فجاءني رجل في الخمسينات من عمره أو يقترب منها وأخذ يهدئني، ونادى النادل وطلب لي ليمون مثلج، وأخذ يحدثني بحديث لطيف حتى حضر النادل بالليمون ثم قال:

ـــ ما اسمك يا بني؟.

فتوقفت قليلا ثم تساءلت في بلاهة وغباء:

ـــ من كان اسمه حاتم منذ ستة وستين عاما، ماذا يكون أسمه اليوم؟.

فضحك الرجل حتى بدت صفراءه القذرة وقال:

ــ سيظل حاتم كما هو.

ثم رفع كوب الليمون ومد به يده، وأردف قائلا:

ــ اشرب الليمون واهدأ.

فأخذته من يده واحتسيت رشفة، والرجل ينظر إلي نظرات غريبة متفحصة ثم قال:

ــ أريد أن أسألك ..

فقاطعته بغضب:

ــ بل أنا من يريد أن يسألك، كم عمرك؟.

فاندهش الرجل لسؤالي لكنه أجاب:

ــ سبعة وأربعون عاما.

ــ وفي أي سنة ولدت؟.

وكأنه يعامل عقل طفل صغير، أجاب:

ــ ٢٠٢٩

فوضعت رأسي بين كفي وأطرقت إلى الأرض وأنّيت أنينا موجوعا، فقال الرجل:

ـــ مالك يا بني، كيف تشعر؟ أحضر لك طبيبا؟.

فتجاهلت كلامه عن الطبيب وتساءلت وأنا مطرق إلى الأرض:

ـــ ما اسم هذا الميدان ؟.

فقال باسما:

ـــ يبدو أنك لست من هنا، سأخبرك، هذا الميدان هو ميدان ...

كانت بداخلي حينئذ صراعات لا تصفها الكلمات، فلهولها كأنها تفاعلات هيدروجينية كالتي في بطن الشمس وأنا أستبطئ الكلمات حتى يصل إلى كلمة ميدان ثم يسميه باسمه، وقبل أن ينطق اسم الميدان ناداه أحدهم فقطع حديثه معي والتفت إلي صاحب الصوت وحدثه في بعض الأمر، فزادت صراعاتي ولعنت صاحب الصوت في نفسي، وعاد إلي بحديثه قائلا:

ـــ ماذا كنا نقول، آه، نعم هذا الميدان اسمه ميدان الجيزة.

فانطلقت من الكرسي انطلاقة الصاروخ من القاعدة مهللا الله اكبر، ثم اتبعتها بسجدتي شكر لله على الأرض ..

يبدو أن هناك خلل في أمر ما يوشك أن ينجلي، أو على أسوأ تقديرات إذا تساوت الشكوك بالحقائق فهنالك أمل في انتصار الحقيقة أخيرا.

ثم هدأت واسترحت فاردا جسدي على الكرسي مادّا قدمي على الأرض مربع الذراعين وتنهدت في نشوة وسعادة، وشربت كوب الليمون بتلذذ حتي آخر قطرة فيه، ثم حولت عنقي إليه قائلا:

ـــ لا أدري كيف أشكرك، فعلا أنا عاجز عن شكرك.

فرد الرجل وقد علت وجهه ابتسامة كمن أسدي إلي فضل ونعمة:

ـــ العفو يا بني لا شكر علي واجب.

ثم سكت لهنيهة حتي يستمتع بشكري وعرفاني بالجميل له، وأنا في غاية السعادة لما سأسمع، لا شك أنه سيخبرني أن غياب الباعة الجائلين هو جهد مشكور للحكومة، وأن اللافتات الأجنبية ما هي إلا خطأ استشري في البلد، وأن المرور قد نظم الطرق وخطوط سير السيارات، ورتب لها أماكن خاصة يقصدها الركاب لتخفيف العبء عن كاهل الطرق، وغيره الكثير كنت أنتظر أن أسمعه منه، فاعتدلت في جلستي وألقيت أذني تحت قدميه يملأهما كيفما يشاء، وأرهفت له نفسي وكأنني سأستمع لموسيقي عمر خيرت.

نعم سأقول عمر خيرت وليس بيتهوفن أو شتراوس أو تشايكوفسكي، فما زال الأمل موجودا .. الحمد لله.

فتابع الرجل حديثه قائلا :

ـــ هذا الميدان اسمه ميدان الجيزة سابقا .. منذ سنين طويلة، ولكنه الآن ميدان فيكتوريا.

فاهتزّت رأسي ودارت في فلك الدهشة والذهول، واختلطت الرؤية أمامي فلم أكد أميز شيئا من شيء، وسقطت على الأرض مغشيّا عليّ، ولم أدر بنفسي إلا وأنا بين ملائكة الجمال، أقصد ملائكة الرحمة.

٥

في الرواق الممتد الذي يقسم المشفى إلي نصفين تقع غرفتي إلي اليسار في آخره، يعترض طريقها صالة جانبية تغص بالزائرين لكن في نظام مدهش، كان الجالسون يشاهدون القنوات الأجنبية المعرّبة كما هو الحال هذه الأيام، كذلك تشبّعت الحوائط بصور ومقولات الأطباء الغربيين، فيما يشبه كثيرا جدار كوبري عباس المعلق والصور التي عليه لمهندسي أسبانيا، والذي ظننته بادئ الأمر أن المهندسين المصريين من شيدوه، وتساءلت وقتها في بلاهة عن المقاولون العرب!.

فتحت عيني بعدما قضيت يوم وليلة في غيبوبة تامة إذ أصبت بارتجاج في المخ، فرأيت ملائكة الرحمة كما يجب أن يطلق على أمثالهن بالنسبة لي، حيث وجدت عند قدمي امرأتين، بل فاتنتين تحومان في روضة ربيعية يانعة، انحصر ردائيهما فوق ركبتيهما بكثير، فند فخذيهما عن نور الصباح، وبدت الأذرع عارية كعناقيد النجوم المتلألئة، وانكشف صدريهما يشع جمالا وفتنة، وتهدّل الشعر الأصفر على البشرة البيضاء يداعب عيونهما الزرقاء فيكشفها حينا ويواريها أحيانا، فابتسمت وقلت لنفسي أيتها الفاتنتين لقد جعلتماني أعشق المرض، أين الآن أم أحمد وأم عمرو وأم عطيات اللاتي طالما قابلتهن بمستشفيات ما قبل عصر النوم، وصدعوني بأصواتهن المرتفعة حتى يرين كيف يكون التمريض، آه لو أري أي من هؤلاء الأمهات!.

تساءلت في تخابث لطيف:

ــ أظن أنني بالقصر العيني الفرنساوي وأنتما فرنسيتان من ضواحي باريس الساهرة أليس كذلك؟.

فقالت إحداهما بعربية متكسرة:

ــ نعم ففرنسا استردت الإسم، وبكثير من المساعدات الطبية لمصر استطاعت أن تستحوذ على القصر فنحن من بنيناه وجاك شيراك من افتتحه، واسمه الآن دار الشفاء الفرنسية.

قالتها بشموخ واعتزاز كأنما تذكرني بأفضال فرنسا علي مصر، فسكت ممتعضا لا أدري ما أقول، صحيح أنني صدمت وأصابني كثير من التيه والبلاهة، لكن لا يجب أن أظل هكذا، يجب أن أصل إلى أي إنسان يستطيع أن يفهمني شيئا.

فخرجت أشق الرواق خارجا بعد أن أذنا لي بالخروج لتمام شفائي، ولمّا نزلت للدور الأرضي استوقفتني امرأة تبكي عند الباب الرئيس، فسألتها عن سبب بكاءها فأخبرتني أن ولدها الصغير بالدار، ويرفضون تسليمه دون علاج ويرفضون علاجه دون مال ويرفضون النقود التي معي، فتنهدت وعرفت أنها نفس مأساتي السابقة، ليست معها دولارات سوى نقود مصرية قميئة، فنفت ظني وأخبرتني أنها تملك من الدولارات ما يكفي للعلاج والنقاهة لكنهم يريدون (يورو) حسب نظام السداد بالدار وهذا مالا تستطيعه، حيث لم تتمكن من تحويل الدولارات اليوم.

أخذتني الشهامة المصرية التي لم تذهب في غياهب النوم، وسألت بصوت مرتفع في بهو الدار بلهجة تحذير جلجلت بفعل الرخام والسيراميك في الأرض والحوائط:

ــ في أي طابق ولدك؟.

فأخبرتني أنه بالطابق السابع والستين، فذهلت .. السابع والستون! القصر العيني ذلك القزم العلاجي سبعة وستون طابقا، يالنومي، رمقت من قريب حارسين يهرولان إلي في خطى ثابتة شاهرين هرواتهما وكأنهما من جهاز أمن الدولة الفرنسي، فهدأت شهامتي وانصرفت خارجا من الدار ونظرت خلفي نظرة فاحصة للقصر أو إلى دار الشفاء الفرنسية فوجدتها ناطحة تعانق السحاب، حوالي ثلاثمائة طابقا، بعد الطابق المائة تغير لون المبني ووضعت عليه لافتة مكتوب عليها بالفرنسية قسم المواطنين الفرنسيين، ولهم باب مستقل، الآن عرفت لماذا كنت بالطابق الرابع.

أُلحق بالمبني حديقة كبيرة مزينة بالأشجار والورود لراحة المرضى، انتشر في أرجائها عدد قليل من الممرضات بصحبة بعض المرضى يسامرونهم ويقرؤون لهم ويداعبونهم أحيانا ..

طلبت فنجان قهوة من البوفيه القريب وجلست بالحديقة أحتسيه على مهل وأنا أتابع ملائكة الرحمة بإعجاب ونشوة، ثم أشعلت سيجارة ومددت قدمي وألقيت رأسي للخلف ومطت فمي لأعلي أنفث دخاني فرأيت وجها غليظا معقدا يحدق فيّ بغيظ شديد، فانتبهت واقفا ازدرد ريقي قائلا:

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال الرجل علي الفور:

ـــ أطفئ السيجارة يا حيوان.

اطمأننت لسبابه وقلت مستريحا:

ـــ أنت مصري إذن.

فاستدار الرجل وأخذ السيجارة من يدي وتلفت يمنة ويسرة ورماها على الأرض وفركها بقدمه ثم أخذها ووضعها في جيبي ونفض يده ومسحها في سترتي.

ـــ لو رآك أحدهم لضربت ثم أودعوك السجن، هذا المكان له خصوصيته .. لست هنا في المستعمرة.

ونظر إلي نظرات غاضبة حانقة مزرية لشخصي وانصرف، فسكبت نصف كوب القهوة على الأرض النظيفة، وكسّرت زجاجه بغضب تحت حذائي وأخرجت عقب السيجارة وبصقت عليه ورميته نحوه، ومضيت غاضبا دون أن أعرف من دفع عني تلك (اليوروهات) لكني متشكر، المهم الآن أن أعرف حقيقة ما يدور حولي، ولكن كيف أمضي بهذا الثوب المتسخ، كيف لو رأتني ليلى الآن ؟ ولكن .. أين هي ؟.

قررت أن أذهب إلى البيت أبدل أثوابي فلعلني أجد ليلى تحدثني.

فاتجهت مترجلا إلى المنيل فوقف تاكسي بجواري يسألني إن كنت أريد أن يوصلني إلي مكان ما، وما إن نظرت في وجه السائق حتى عرفني قائلا في حنق بالغ :

ـــ أهو أنت يا ابن الـ ...

وأكملها بسيل من السباب الفظيع، ولم تمض ثوان إلا وقد جريت مسافة بعيدة حتى لهثت أمامه وكأنه يسوقني، وهذه المرة كان يقسم أن لن يدعني، فالتفت إليه محذرا أن السيارة بعرض الشارع وأنه مخالف، فلعنني ولعن السيارة والطريق

والمخالفات حتى أدركني وعبثت يده ولسانه وقدمه بي، وعندما لم يأنس بجيوبي دولارات أخذ ملابسي وتركني بملابسي الداخلية أسير في الشارع عاريا حافيا، فأخذتني إحدى سيارات الشرطة، فأغمضت عيني وقيدت قدمي بقيد حديدي.

٦

جلست على شاطئ النيل أتأمله مع غروب الشمس، كانت أشعتها الذهبية تتمايل على أمواجه الهادئة، فاسترخيت للمنظر الجميل ولصوت العصافير الشادية على غصون الشجر.

واستعدت ذكريات مضي عليها أوقات لا أدري كم تبلغ، أشعر أنني على استعداد أن أدفع عمري الآن ويعود يوم من أيام النيل.

كنت أكثر الناس حبا وعشقا للصيد، لم أدع جمعة تمر عليّ كل أسبوع إلا و أذهب إلى منطقة جديدة على ضفاف النيل لأصطاد، مصطحبا معي طعاما خفيفا وشايا وقهوة، وأظل هكذا حتى تغرب الشمس كما هي الآن، في مثل هذا الوقت ...

لكن الآن خبتت كل معالم النيل، فلا قوارب تسبح علي صفحته، سوي يخوت خاصة منتشرة، ولا النساء وأطفالهن الصغار يمسكون بشباك الصيد كالعادة، ولا بيوت في جزائر النيل، فأغلب الجزر بنيت فنادق وقرى سياحية عالمية تحمل أسماء الدول التي استثمرتها ...

شعرت بوجع يدب في ظهري ورقبتي فتمددت بجانب المياه، فلم تزل أثار الضرب في قسم الشرطة ذات ألم مبرّح في جسدي، ظنّوني مجنون أعبث بالأمن، لأن الألمان أشد ما يحرصون عليه في إدارة الأحياء التي تقع تحت إدارتهم في مصر وخصوصا في القاهرة هي الأمن، هذا ما عرفته من بعض المعاونين هناك، فالأمن الآن لا تقوم عليه أجهزة الأمن تحت إشراف الدولة متمثلة في جهاز الشرطة

مثلا، لكن لكل دولة ذات سيادة ومصالح تشرف على أحياء تخصها وتنشئ لها جهاز أمني لا يتعدي خارج نفوذها.

وعندما تأكدوا من رجاحة عقلي أفرجوا عني وأعطوني هذه السترة الألمانية الجميلة، التي تدل على أفضل الماركات الألمانية في مجال الملابس، وأعطوني بنطال وغطاء رأس، ما أجمل الألمان وملابسهم الجميلة، وما أجمل الضابط التي حققت معي.

لم أنزعج كثيرا لكمّ الضرب الذي تعرض له جسدي، ولا كمّ الإهانة التي تعرضت لها كرامتي بالقسم، فذلك أمر معهود في مصر وأقسامها قبل عصر النوم، وإن كنت لم أتعرض له ولو مرة إما لطبيعة عملي كصحفي أو لقربي الشخصي من بعض القيادات الشرطية والتي كانت تجعلني علاقتي بهم أتغاضي عن كثير من الانتهاكات داخل الأقسام وخارجها في الكمائن، لكن أكثر ما آلمني وكان مدعاة للسخرية أن القائمين على تعذيب المحبوسين مصريون!.

هّنا على أنفسنا فكان هواننا على غيرنا أيسر.

غربت الشمس أكثر، وتلاشي شفقها خلف ناطحات السحاب في تلك المنطقة التي لا أعرف اسمها، وشعرت بالجوع والعطش الشديدين فاقتربت أشرب من ماء النيل النظيف فوجدت لافتة ألقت عليها أعمدة الطريق بعض النور، فبدت كلماتها ناصعة إذ كتبت بمادة الفسفور الساطع، فاقتربت منها، كانت مكتوبة بما يزيد عن ثلاثين أو أربعين لغة فبحثت عن اللغة العربية فوجدتها في الذيل أسفل القائمة، فانحنيت لأقرأها فإذا هي تنبيه وتحذير من عدم الاغترار بنظافة الماء، مشدّدة النهي عن الشرب منها إذ أنها تؤدي إلي الإصابة بأمراض مزمنة كالسرطان والفشل الكلوي وقد تؤدي إلي الوفاة.

كأنني سقطت في بئر عميق مظلم وأنا أصرخ مستنجدا فيتردد صوتي بين صخوره الصلدة حتى انتهيت إلى قاعه ولا أحد يجيب، فتسمّرت لا يشدّ بصري عن ماء النيل وكأنني أسأله ماذا حدث.

فجلست محتبيا ووضعت رأسي بين ركبتي ، فمرت ساعة أو ساعتان، لا أدري كم من الوقت مر علي، وشرد ذهني في ليلي وكلّي خوف وقلق عليها، وحدثتني نفسي بالرجوع ولكن الرجوع إلى أين؟. إنني الآن لو أوقفت تاكسي لا أعرف ماذا سأقول له عن وجهتي ولا إلي أين يوصلني، إلى المنيل، أم إلى ميدان الجيزة، أم إلى أين؟ أم أقول له أوصلني إلي مصر!.

وبينما تعصف بي الأفكار في رأسي ترامى إلي أذني صوت امرأة من أسفل الشجر القريب مني على ضفة النيل، كان صوتا ضاحكا ناعما جميلا كصوت عزف الكمان بدار الأوبرا التي طالما استمتعت بحفلاتها الشجية، ثم كثر ضحكها وتوجعها الذي يوقد النفس والأعصاب ويشعلها فلا يدعها إلا كفحمة سوداء هادئة، فصوّبت النظر تجاه الصوت ثم قمت إليه أستكشفه، فرأيت رجلا يفترش امرأة على ضوء شموع ذات رائحة جميلة منعشة، كانا يفترشان بساطا أحمرا وحولهما زجاجات مياه وخمر مثلجة ويتدثران بثوب شفاف بدا من خلاله جسديهما عاريين.

فزجرتهما، وأمسكت بغصن صغير مهددا بضربهما إن لم ينصرفا عن هذا المكان، فلم يراعا وكأن صوتا لم يسمعاه، فرددت مقتربا أكثر وامتدت رجلي إلي الرجل فوكزته، فنظر إلي في استخفاف مشيرا بمسدس وحذرني: إن لم أبتعد عنهما وأدعهما وشأنهما سيطلق النار علي ولن تكون هناك لائمة عليه ولا جناية، والنيل على أية حال يتسع لآلاف الجثث من أمثالي، فخارت يدي وتهدّل

الغصن بيدي وسقط على الأرض، ورجعت إلى موضعي الأول ولازال صوتهما يصل إلي، وعبثت يدي ببعض الصخر الصغير المنتشر على ضفاف النيل، فأمسكت واحدة تلو أخري أقذفها في النيل فتصنع دوائر حولها فأتتبعها حتى ينتهي إطار كل دائرة وسط أمواج النيل الهادئة، وداعبتني صوت مياهه العذبة الندية، وتراقصت أمواجه كأطفال صغار ووجدتني أتكلم بصوت مسموع قائلا: لا زلت أيها النيل جميل مهما مرّت عليك الدهور والأزمان، ولكني أراك الآن شيخا عجوزا، أستطيع أن أفرّق بين قطرات ماءك ودمعك مهما اختلطا، لينني أفهم لغة الماء، كنت حدثتك وحدثتني ، وشكوت لك أمري ، وشكوت لي ...

قطع عليّ صوتي أنين قادم من الجهة اليمني من بقعة مظلمة على ضفة النيل، ثم التحم الأنين بالبكاء والنحيب فقمت فزعا، فلعله مريضا فأسعفه، فوصلت إلى الصوت فكان شابا في مثل سني وطولي تقريبا، مجعّد الشعر أسود العينين ملامحه مصرية نيلية قديمة، فجثوت على ركبتي بجواره متسائلا :

ــ مالك .. ماذا أصابك، كيف أستطيع مساعدتك؟.

فسكت، ونظر إلي نظرة متشككة ثم تابع أنينه وتوجعه، فقلت:

ــ ساعدني لأصل بك إلي أقرب مشفى.

ومددت يدي تحت رأسه أقيمه لكنه دفع يدي برفق وقال:

ــ دعني!.

ثم بكي أكثر، فتربعت بجانبه وأيقنت أنه ليس مريضا يحتاج إلى علاج، إنه سقيم النفس يحتاج إلى استرواح مثلي، لكن شتان ما بيني وبينه، فاستجمعت بعض الرزانة وقلت له:

ــ أخبرني ما مشكلتك لعلّي أساعدك؟.

نظر إلى في فتور وقال:

ــ لن تستطيع مساعدتي .. لا أحد في هذا الكون كله يستطيع أن يساعدني.

فوضعت يدي ثانية تحت رأسه وأجلسته، فكفكف دموعه وهدأ قليلا ونظر إلى يتفحصني، كان وجهي شاحبا مثله في هذا الضوء الخافت المتسرب من خلال الأغصان وأوراق الشجر، فقال:

ــ هل أنت متسول؟

فابتسمت قائلا:

ــ لم أر في هذه المدينة الغريبة إلى الآن متسولا فلماذا أكون "متسول"؟!.

ــ أعتذر.

ــ لا تعتذر .. وعلي أية حال إذا أردت أن تصفني بدقة فتستطيع أن تقول: متشرّد.

فضحكنا قليلا، فما بنا لا يسمح بالاسترسال في الضحك، فأردفت قائلا:

ــ ما اسمك؟.

ـــ مينا.

ـــ أهلا بك .. حاتم.

ـــ نوّرت مصر.

قالها ساخرا فابتسمت، وساد بيننا صمت قليل ننتظر من يبدأ الكلام، وانصرف بصري بعيدا، فرأيت الشاب والفتاة خارجين من أسفل الشجر متجهين إلى الطريق صاعدين يحملان أمتعتهما على ظهريهما وهما في غاية النشوة والسعادة تحفهما الضحكات المتكسرة، فخرجا ولم يلبث مكانهما شاغرا حتى أتي إليه آخران وكأن المكان بتذكرة.

ـــ من أين يا حاتم؟.

لم ألتفت إليه، سمعت سؤاله ولكن ماذا أقول له؟ فتظاهرت بالشرود حتى لا تند عني كلمة تؤكد أنني مجنون، ماذا أفعل، فأنا لم أعد متأكدا إن كنت عاقلا أم مجنونا، ارحمني يارب.

وضع يده على كتفي ينبهني وأردف قائلا:

ـــ يبدو أنك تعيش مأساة.

لكنني لم أشأ أن أفتح بابا للحديث عني لا أستطيع أن أغلقه، فبادرته بسؤال يحول دفة الحديث إليه، فمن كان في مثل حالته فحري أن يكون ذا موضوعات يطول فيها الكلام حتى أتركه وأرحل، فربما غدر به صديق أو طرده أبوه من بيته أو مات له عزيز ..ربما.

ــ لقد أفزعتني، كيف ترقد في هذا الظلام وأنت في حالتك هذه ، ماذا حدث معك؟

فقال:

ــ لا أدي كيف أذكر قصتي ..

وما إن قال "قصتي" حتى هدأت نفسي لتوفيقي في التملص منه، فأنصت إليه وهو يقول:

ــ أنا لا أدري أي شيء وكأنني لست في بلدي ووطني فكل شيء تغير، كل شيء لم يعد كما كان.

فقلت متخابثا:

ــ هذه هي سنة الحياة، والتطور والتغيير سنة الكون، والزمن لا يقف في مكانه ساكنا

فقال:

ــ ليس ذلك ما قصدته، ولا أدري إن أفصحت لك عما في صدري أتصدقني أم تفرّ هربا من جنوني وهذياني.

ثم أتبعها بآهة مكتومة وكأنها تعليق على ما سبق واختصار له، ثم سكت برهة ووضع يده على بطنه يفركها:

ــ أنت جائع؟.

فقال ولا تزال يده ممسكة ببطنه:

ــ بشدة!.

فابتسمت، فقد كنت منذ قليل في شدة من الجوع والعطش، كانت أمعائي تعتصر، لكن صاحبيْ الشجرة أنسياني الجوع.

ابتسم قائلا:

ــ يبدو أننا متشابهان كثيرا، تعال فلنبحث عن طعام يهدئ أوار أمعائنا.

فقمنا واتجهنا نحو السلم المؤدي إلى الطريق ثم وقفت، فنظر إلى مستفهما فقلت:

ــ ألا يجدر بنا أولا أن نبحث عن مأوي بعيد عن الشوارع ومخاطرها.

فقال يطمئنني:

ــ هذه ليست مشكلة فعندي غرفتين في منطقة قريبة تستطيع أن تشاركني فيهما.

أسعدني عرضه الطيب، ومضينا في طريقنا واستمر الحديث بيننا، كان يشغلني الحصول على الطعام ونحن مفلسين لا مال معنا

ــ كيف يمكننا الحصول على طعام وأنا مفلس؟ وأظنك مثلي.

فابتسم قائلا:

ــ لا تشغل بالك، فسرقة الطعام في هذه المناطق أيسر الأشياء على المحترفين أمثالي وأمثالك عن قريب.

ضحكنا على ما بنا من جوع ومرارة واستمر سيرنا، فكنّا نتفرّس كل شيء في الطريق ونسخر منه، كانت فتيات الليل قد انتشرن في ملابس خليعة صارخة، يدعوننا في جرأة لا مثيل لها فلم نلو عليهن، وتابعنا السير نشق الطريق الممتدة المتسعة الجنبات ذات البنايات الشاهقة المرتفعة، فنشاهد المحلات ذات الأنوار الجميلة المجنونة، والحانات التي تفوح منها روائح الخمر المختلفة.

وصلنا إلي مكان يشبه إلى حد ما ميدان التحرير، كان كأي ميدان لكنه أضيق كثيرا تنتشر فيه المقاهي العالمية ومكاتب السياحة وخطوط الطيران ويمتلئ برجال ونساء مختلفي الألوان والألسن وكأننا في هيئة الأمم المتحدة، لكن لا يكاد أحد يرانا نمر بجانبه حتى يطلق بضع كلمات بلغة لا أفهمها، لكنني أستطيع أن أتوقع ما تعنيه، إذ تخرج دائما من شفاه جامدة عبوسة مع حاجبين معكوفين.

سألت مينا:

ــ كيف يمكننا الرد على هذه الإساءات؟.

فقال:

ــ بالاختفاء وفقط، فلو رأتنا الشرطة هنا وأمسكت بنا ـلا قدر اللهـ فلن نري الشمس ثانية.

ــ ولم؟.

ــ هه .. (لم) صادمة إن عرفتها، لا تتعجل فستنل نصيبك وافرا من الصدمة قريبا.

وفي طريقنا مررنا على مبنى أنيق جميل من ثلاثة طوابق، كان عبارة عن مبنى ترفيهي، طابقه الأول مقهى رائع الجمال والفخامة، والثاني مقسم إلى صالات العاب مختلفة، والطابق الثالث عبارة عن مطعم، شفّت واجهاته الزجاجية عن مكنوناته، أظن أن هذا المكان في السابق كان مبني جامعة الدول العربية إن صدق ظني بأننا في ميدان التحرير، هكذا أفضل بكثير لو أن هذا المبني على الحقيقة هو مبني الجامعة العربية، على الأقل لو أن عربيا واحدا من المحيط إلي الخليج يعمل بأي من الطوابق الثلاثة ويكسب منها قوت يومه لكان إنجازا أفضل من إنجاز المبنى يوم أن كانت جامعة للدول العربية منذ إنشائها في عام ١٩٤٥ وحتى نهايتها التي لا أعرف متى كانت.

أشار لي برأسه وكأنه يقرأ ما يدور برأسي.

ــ لا تجهد عقلك إنه هو.

ــ معقول؟

ــ معقول ونصف .. وهل ما كانت تفعله العرب تحت قبة هذا المكان المقرف (معقول)؟ هه .. لا تحزن، فالجامعة العربية ليست أكثر من (كازينو) لكن السُّكر فيها ليس بالخمر ولكن بالكلمات العنترية المنمقة، سواء أكانت فخرا أو رثاء لحالهم.

ــ (حالهم)؟.

ــ نعم، فلم يكن حالنا يوما من الأيام، فهم يتحدثون باسم الشعوب العربية وهم منفصلون عن تلك الشعوب وعن آمالها وطموحاتها، فكم مرة اجتمعوا لحل مشكلات بعض الدول كالعراق وفلسطين التي أصابتها لعنة أمريكا وإسرائيل، وسكروا حتى الثمالة من قاموس كلماتهم السمج الأجوف الأبله، ثم هم من

قبل ومن بعد علي علاقة أخوة صادقة عمادها الوفاء والإخلاص بأمريكا وإسرائيل.

كثيرا ما حضرت هذه المؤتمرات هنا في القاهرة، وصمّت أذني (بخمرهم) كما قال مينا، ومن عجيب ما كنت أرى أن الرؤساء لم يكونوا حتى يستمعون للمتكلم فمنهم من كان ينام ومنهم من ينشغل باللعب على هاتفه المحمول ...

فالقضايا التي كانت تناقش وإن كانت بالغة الأهمية للعرب وذات خطر كبير إلا إنهم يعلموا جيدا أن لقاءاتهم وشجبهم وإداناتهم وعنتريتهم ليست أكثر من ذر الرماد في العيون، فارتباطاتهم بالدول العظمي في العالم تحول دون تحوّل قراراتهم إلي شيء واقعي، وساعدهم على ذلك شعب لا يحاسبهم إذا رجعوا إلي دولهم، ويكتفي الشعب بإبداء إعجابه بكلمة الرئيس فلان، وسماجة الرئيس علان ...

لكن أين هم الآن، أتساءل في نفسي بمرارة وأنا أنظر للوجود من حولي، ويطوف بخاطري دولا أخري لا أستطيع تصور حالتها بعد ما حدث الذي لا أدري عنه شيئا، انفصالهم عن الشعوب أدي لكراهيتهم، كانت اللعنة تنزل عليهم صباح مساء من العامة في كل مكان أذهب إليه، لكني لا أستطيع الدفاع عنهم وقتها، فأمثالي أصابه ما أصابهم من هذا الإنفصال الوجداني، وللقمة العيش أحكام فلم أكن أدافع إلا من خلف مكتبي ضاربا عرض الحائط بكل ما رأيت في الناس من معاناة، وكانت الحجة التى نسوقها دائما أن الرئيس لا يعرف عما يحدث شيئا، وأن الفساد ناجم عن الوزراء ومن تحتهم!

في إحدي جلساتنا، فاجأني على حسنين أنه كتب قصة ويبحث عمن ينشرها، كانت ملامحه عادية لا تشي بشئ، لكنه كان يخبّئ سخريته منّي خلف ملامح ساكنة حتي أقتنع بقراءتها، كانت في ثلثي صفحة متسخة، فتحتها وقرأت: (في

صباح يوم مشرق جلس الرئيس على مكتبه الخشبي الفخم بائسا حزينا، فدلف عليه رئيس الديوان حاملا أوراقا هامة بحاجه إلي مراجعة واتخاذ قرار فيها، فانزعج لحاله ولم يجرؤ على سؤاله عن السبب، فوقف متصنعا الحزن والرثاء لحاله، وتأمل وجهه بطرف خفي، عينيه حمراء كأنه لم ينم منذ أسابيع، حولها هالات داكنة من فرط إجهاده، وعلى المكتب بجوار اللاب توب اكتظت المطفأة بأعقاب السجائر حتي فاضت عنها، وتناثرت فناجين القهوة على سطح مكتبه بعشوائية تشبه ما بداخل الرئيس لتشعب همومه وأحزانه.

رفع عينيه عن اللاب توب ونظر نحو رئيس الديوان بأسي متسائلا عما يريد، فأجاب الرجل بسؤال عما أهم الرئيس، فعاد ناظرا إلي الشاشة وترقرقت عينيه بالدموع، فتمتم الرجل بداخله وهو يتقدم نحوه أي أخبار بائسة أهمّت الرئيس وأسهرته الليل، كان الله في عونه.

ولّما وقف بجواره وجد على الشاشة عبارة "you lost" وفي خلفيتها جثة مصارعه المفضل ملطخة بدمه على الأرض، يبدو أنه خسر كثيرا كعادته، فرجع رئيس الديوان من حيث أتي حاملا رزمة أوراقه).

غضبت وقتها غضبا مصطنعا كعادتي بينما استمر صديقي في الضحك حتي ضج المقهي بنا فتركتهما وذهبت.

استمر سيرنا وقتا آخر تابعت فيه الطريق باهتمام .. ما أجمل السيارات في هذا الميدان، وما أغرب أشكالها وهيئتها، إنها تُحف مجنونة في تصميماتها ما بين صغيرة لا تكاد تشب عن الأرض، و كبيرة كأنها سيارة تحمل سيارة فوقها، أو كأنها بيت متحرك.

كان الجو لطيفا، والحياة زاهية ممتعة، سرت بجوار مينا كل هذا الوقت وأنا لا أشعر بوجوده، يبدو أنه حدثني كثيرا لكنني لم أسمع، وما أفقت إلا بارتطام وجهي بإحدى سواري الطريق، فضحك علي كثيرا، وتفرس موطن إصابتي فوجدها متورمة قليلا فضحك مداعبا لسهوي، حتى وصلنا إلى المكان المختار الذي سيعزمني فيه على الطعام، أو الذي سنسرق منه طعامنا.

٧

انتهينا إلي إحدى المحلات الفخمة ـوكل المحلات في هذا المكان فخمةـ فتطلعت عيني إلى رواد المطعم، أغلبهم أجانب والقلة الباقية مصريين وعرب يبدو عليهم الثراء، وقفت عيني علي إحدى النضد ولم تفارقها لغيرها، كانت غادة ياسين بعودها الممشوق وجسدها الفائر، نَدّ سحرها الفاتن من فخذها الأيمن البارز من فتحة فستانها الأسود، يتلألأ صدرها على ضوء الشموع الزاهية، وأرسل شعرها الفاحم الحريري حتى مقعدها ...

كانت تطلق ضحكات لا أسمعها، حيث المطعم مغلّف بزجاج عازل للصوت لكني أدرك سحرها وفتنتها فلكم رأيتها وسمعتها وجها لوجه من شفاهها الرقيقة العذبة المنمقة.

كان بجوارها العجوز سعيد حتحوت يجلس بينها وبين رجل أشقر رمادي العينين أصفر الشعر، يبدو أنها (جلسة عمل) كالعادة.

تفاجأت بسؤال صارخ بين جوانحي: أهذه زوجتي .. وكيف أخلاق الرجل اليوم حتي لا أشوّه المجتمع بتصرف أحمق أبله؟!.

يبدو أنني تائه في نفسي ...

كان العجوز كما هو في هيئته لكنه أكثر نعمة وثراء، يبدو أن أمثال حتحوت وغادة سادة كل عصر، لا يُعْجِزَهم الزمن؛ فمؤهلاتهم عصية على ألا تكون ذات فائدة فأي وقت من الأوقات.

جذبني مينا من ذراعي قائلا:

ــ يبدو أنك تعرفهم.

ــ عزّ المعرفة.

جذبني مرة أخري قائلا:

ــ الوقوف هنا أكثر من اللازم يعرضنا لمشاكل لا طاقة لنا بها.

فترجّلنا بجوار المطعم ننظر إلي صنوف الأطعمة الشهية على الموائد، فكّرنا قليلا كيف يمكننا الولوج إليه ونحن دون مستوى رواده هيئة وثيابا، فقد كان يبدو علينا أثر سير عشرين يوما، فاهتدينا إلى خطة محكمة وهي ابتزاز صاحبه بتهديده بهجومنا على المطعم وارتكاب لغط به مما يسيء إلى المطعم وسمعته، ومع أن الابتزاز أو "البلطجة" هو التطور الطبيعي للسرقة فكان من السهل أن يطرأ على رؤوسنا هذا التفكير، لكنه عارض واحتمى بأمن المطعم المشدد فهددناه أكثر برشق زجاج المحل بالحجارة من بعيد مما يكبده خسائر فادحة.

لم يكن لديه خيارات أمامنا، فأعطانا ما أردنا وانصرفنا، وجلسنا بجوار حائط بشارع متفرع من الميدان، وبسطنا الطعام على الأرض، وأكلنا عيش وملح معا.

كانت رفقة مينا رفقة حسنة حيث التقينا على وجع واحد وهم واحد.

تخلل طعامنا أحاديث هزلية ساخرة من كل شيء في الوجود، ومنّا نحن كذلك، وكان مما قلت لمينا:

ــ مينا .. أأنت مسلم أم مسيحي؟.

فنظر إلى مبتسما وهو يضع لقمة في فمه:

ــ اسمي مينا!.

فقلت مستنكرا:

ــ أعلم ذلك، ولكني لم أسألك عن اسمك.

فوضع اللقمة جانبا وقد استاء قليلا ..

ــ جورج وبطرس ومينا وبولا .. ماذا تمثل لك هذه الأسماء والانطباع الذي يصل إليك حين سماعها؟.

ثم تناول زجاجة مياه ونزع غطاءها ليشرب.

فقلت:

ــ أما جورج وبطرس وبولا فأنا لا أعرفهم، لكن مينا هو أنت ، فما هي ديانتك؟.

فرمي الزجاجة في غيظ شديد فارتطمت بالحائط وانفجر ماؤها، ورفع يديه إلي السماء قائلا :

ــ ارحمني يا رب.

سكتنا برهة ثم انفجرنا ضاحكين، و فتحت زجاجتي وناولتها إليه فشرب وشكرني

ثم سألني:

ـــ من كانت الفتاة والرجلين؟.

ـــ الفتاة!.

ـــ يبدو أن آثارها مطبوعة في قلبك ونفسك.

ـــ هي أجمل وأقبح من رأيت.

ـــ مممم .. والرجل؟.

ـــ سعيد حتحوت.

فعكف حاجبيه مستغربا لسكوتي بعد ذكر الإسم، فأردفت قائلا:

ـــ سعيد حتحوت لا يحتاج أن تعرّفه بشيء أو أن تضيفه لشيء ليظهر معناه وتعرفه، فحتحوت بين الناس كالنفاق والغش والكذب والتدليس في الأخلاق والصفات، لا تحتاج إلي تعريف أي منها، أما الرجل الآخر فهو باب من أبواب (الرزق).

أسندنا ظهرنا إلي الجدار، وتابعنا حركة الطريق في صمت، وهبّت نسمة عليلة على وجوهنا فأنعشتنا فأخرجت سجائري وناولت مينا واحدة، وانتشينا سجائرنا في صمت متواصل فمرّ علينا رجل أنيق الملبس فصيح اللسان مجعّد الشعر على جانبي صلعته طويل السالف، يتبعه رجلان يبدوان وكأنهما حراسته يحمل أحدهما بيده كرسي صغير يسهل حمله وطيّه، فوقف وهمّ بالجلوس معنا على الأرض فبادره حامل الكرسي فوضعه قبله ليجلس عليه فقال له:

ـــ لا تجعل بيننا وبين أهلنا كلفة، فأنا منهم وهم مني لا أختلف عنهم في شيء، وما جئنا هنا إلا لنقدم لهم المساعدة، لا لنتكبر عليهم.

نظرنا إلي بعضنا ولم نفهم شيء، ولكننا ظنناه تابع للحكومة وأنه بابا للفرج .. ربما!.

جلس الرجل بجوارنا وقال:

ـــ أقدم لكما نفسي، أنا سعيد مسرور.

لم نتمالك أنفسنا، فضحكنا بصوت مرتفع للغاية من اسمه وتعانقت أكفنا أنا ومينا قائلين له في صوت واحد:

ـــ يا بختك!.

فاغتاظ الرجلان معه، ولولا هذا السعيد المسرور لقضينا ليلتنا في أقرب مشفى، فتابع قائلا وقد تصنع ابتسامة:

ـــ نحن شعب يموت في النكات والضحك، ما أخف دمكما!.

ونظر نظرة إلى الرجلين فهدئا ورجعا بضع خطوات إلي الخلف، وأردف قائلا:

ـــ أنا كما ذكرت عن اسمي، وأنا مرشح لانتخابات مجلس الشعب، ولعلكم تلحظون أن أثر حزبي واضح في الشارع، فهو من أطلق هذه الحريات التي ينعم بها المصريون الآن، لكن بعض الأحزاب تشوّه صورتنا وتتهمنا بأننا السبب في هذا التردي الاقتصادي في البلد، لذلك فأنا أدعوكما للتصويت لحزبنا ومرشحي حزبنا، وهذه بطاقة بها كامل البيانات التي ستحتاجانها يوم الانتخاب.

فلاحظ الرجل بلاهة مرتسمة على وجهينا فقام ممتعضا يميط أثر الأرض عن ثوبه وانصرف قائلا:

ـــ من الأفضل أن تعودا إلي المستعمرة في أسرع وقت أيها الحثالة حتى لا تدنسا الطريق بمنظركما.

فتبعناه بضحكات متوالية رجت أرجاء الميدان كله.

وهدأت ضحكاتنا فقال مينا:

ـــ هل تذكر مثل هذه الأيام يا حاتم؟.

نعم أذكرها جيدا، أنا أكثر من يتذكرها بالطبع، فقد كان موسم الإنتخابات موسمي المفضل، فقد كنت أعمل كمديرا لحملات المرشحين الإنتخابية حتي ولو كانوا متنافسين، وكنت اتفنن وابتدع في تزيين صورة المرشح حتي يقتنع الناخب به، صحيح أنني لم أكن مقتنعا بأي منهم ولا حتي بالإنتخابات نفسها لأن الحزب الحاكم هو من يرشح النواب وليس الناخبين، ولم تكن الإنتخابات أكثر من ديكور ديمقراطي خشبي لا يمكن استخدامه إلا للزينة، إلا إنني كنت استغل الموسم واستفيد منه بكل طاقتي.

ـــ كانت الأيام الوحيدة التي يشعر فيها المواطنون البسطاء بالاحترام والقيمة، حتى تنقضي فترة الانتخابات، ولكن ما فائدة الانتخابات اليوم!.

شردنا مع النسيم المنتشر مع تعمّق الليل في الميدان، وأفقنا على صوت سيارة شرطة تدوي تبعها أقدام ثقيلة تنتشر حول المكان الضيق النائي الذي نجلس فيه، يبدو أن صاحب المطعم أبلغ عنا، وأنهم هنا للإمساك بنا وإرسالنا إلي المستعمرة

التى لا أعرف عنها شيئ، فقمنا بحذر، ومررنا من خلف أحد الجنود السود المقنعين، واتجهنا إلى حيث مسكنه، فمررنا ببرج القاهرة كان تحفة فنية عظيمة بظلاله الممتدة في النيل، وألوانه البديعة المرسومة على صفحته، لقد أصبح مزارا سياحيا عالميا وتم توسيعه وإلحاق العديد من المرافق والخدمات به، كان بجواره مطعم كبير أُلحق به أيضا، اسمه مطعم برج القاهرة، لكنه للأسف أصابه الإشراف الخارجي فقد كان تحت إدارة أمريكية، مع إن كل العاملين به مصريون على ما بدا لي للوهلة الأولى.

أظن الآن أنني أعرف أين أنا حيث رأيت البرج.

وصلنا إلى الشارع الذي نقصده، كان ممتدا يقبع الظلام الدامس في آخره، إضاءته خفيفة لا تكاد تفصح عن البيوت بدقة، أخبرني مينا أن سكان الشارع مصريون منتقون للعمل في خدمة الغرباء، لذا تقل الخدمات هنا إلي حد ما، لكن على أية حال فهنا أرحم من المستعمرات.

رأينا بعد البيت بقليل رجل مسن يبكي، تجاهلناه وصعدنا حتى بلغنا السطح، كانت غرفة مينا كبيرة إلي حد ما بالمقارنة بغرفة أخري خشبية ينبعث منها ضوء أصفر قاتم، فدخلنا الغرفة وأضاء مينا أنوارها ورحّب بي أيما ترحاب فشكرت له.

كانت الشقة ـ كما يسميها ـ عبارة عن حجرتين متداخلتين، حجرتها الأولي التي يستند إليها الباب هي كل شيء لمينا حيث جلوسه ونومه وطهوه للطعام فيها، أما الغرفة الداخلية فكانت أشبه بمخزن اكتظت بأشياء ليست ذات فائدة، تراكمت فيها جرائد كثيرة ومجلات، وكانت الشقة بلا حمام حيث كان بالسطح حمام

مشترك بينه وبين الغرفة الخشبية المجاورة، أما عن أثاثها فلم يكن بها سوى كنبتين علي جانبيها .

كان لدي مينا بعض الملابس لا بأس بها، فارتديت إحداها وجلسنا نتحدث عما نحن فيه وفاض كل منا بأوجاعه وأحزانه، ثم سكت وسكت، وأخرج صورة من جيبه وأطال النظر فيها، ثم تنهد قائلا وهو ينظر إلى الصورة:

ــ كيف حالك الآن يا ليلى؟، أرجو أن تكوني بخير.

فانتبهت لهذا الاسم فقلت مندهشا:

ــ ليلى!!!.

فنظر إليّ بوجه مفعم بالحنين والشوق، وقال:

ــ إنها أمي، هذا اسمها.

ــ إنه اسم أمي أيضا.

فابتسم قائلا:

ــ يبدو أننا متقاربان كثيرا كما قلت.

ثم استلقى على ظهره وتمدد على كنبته، وقال:

ــ تصبح على خير.

فقلت ضاحكا:

ـــ خير؟

واستلقيت آملا أن تهدأ أفكاري المستعرة.

وفي هذا الهدوء كان يصل إلى سمعي صوت الرجل المسنّ وهو يبكي، فتجاهلت صوته، وأغلقت الأنوار واستلقيت حتى أنل قسطا من الراحة بعد هذا اليوم الشاق، ودار برأسي كيف أنا ومينا استطعنا فعل ما فعلنا، كيف فكرنا في السرقة أو الابتزاز وأكلنا حراما وأنا رجل صحفي محترم أو هكذا كنت، وتأملت كيف جلسنا وافترشنا الأرض طعامنا المسروق، وتذكرت ليلي وأنا أعترض على كل طعام تقدمه لي، وما كانت تقوله دائما "أنت لا يعجبك العجب، تزوج وأرحني منك"، وما شأن المستعمرة التى يتحدث عنها أغلب سكان عالمنا الجديد؟

فأغمضت عيني، لكن الصوت الباكي لازال يؤرقني، فنزلت إليه واقتربت منه وجلست.

كان رجلا مسنّا، يمسك بيده عكازا، بدا على وجهه آثار الزمن وشقائه

ـــ لما تبكي؟ هل أستطيع أن أقدم لك أية مساعدة؟.

كذّبت نفسي، فما عساي أن أقدم له، لكنها المواساة لا أكثر، هكذا سخرت من قلة حيلتي وأنا أحدثه، لكن الرجل شكرني وتابع بكاءه، فأردفت قائلا:

ـــ اهدأ، قل لي ماذا حدث لعلي أستطيع مساعدتك.

ومازلت به حتى هدأت نفسه وتوقفت عينه قليلا عن البكاء، فقال:

ـــ ابنتي ، ابنتي يا بني!.

فقلت بتلقائية مواسيا:

ــ رحمها الله وصبّرك.

فقال في عصبية وحنق:

ــ ليتها ماتت أو قتلت، إذن لأقمت لموتها الأفراح ولرقصت علي قبرها عريانا.

يبدو أن الأمر مختلف تماما ، ربما تكون أساءت إليه بعض الإساءة، لكن أي إساءة تجعل الرجل يتمني موت ابنته، لعله خطأ لا يغتفر في نظره.

ــ ماذا فعلت لك حتى تتمنى موتها؟.

فأخذ يتحدث، و الدموع تتجمع في عينيه وتهطل على وجهه زخات متقطعة

ــ كنت نائما ذات ليلة من ليالي الشهر الماضي، ودق الباب في حدود الثانية صباحا ولم أشعر بصوت الباب حيث إجهاد العمل يجعل مني أثناء النوم حجرا أصم، وكان الطارق شابا فتيا في مثل سنها في الخامسة والعشرين، ومضى ما يقرب من نصف ساعة وهما معا بصالة البيت لا ثالث لهما سوي الشيطان، فاستيقظت وخرجت من غرفتي لأشرب فوجدتها بين أحضانه يقبلها، فصرخت كالمجنون وأمسكت بالكرسي وتهجمت به على الشاب فرحل مسرعا وهو يسبني ويصفني بالمجنون، أما هي .. فما ارتاعت لرؤيتي لهما، لكنها دفعتني حين أردت لطمها وكادت أن تلطمني على وجهي، وحذرتني لو عدت لما فعلت مرة أخري ستشكوني في قسم الشرطة، فاغتظت حتى صرت كجمرة في أتون مشتعل، وغلت في عروقي المُسنّة دماء الرجولة المصرية الأصيلة التي لم تتحول مع المتحولات الكثيرة حولنا، فاستجمعت نفسي وألقيت بالكرسي على رأسها

فشججتها، فخرجت على فورها والدم يسيل من رأسها إلى قسم الشرطة، فتم القبض علي من بيتي في ساعتها، وأخذوا علي تعهدا ألا أعتدي على حريتها الشخصية بعد ذلك، فقد شبت عن الثامنة عشر، وأي اعتداء عليها سيعرضني للسجن.

٨

لم أستطع التعليق أو المواساة بعد لقائي بهذا الرجل، تجمدت الكلمات في حلقي وتحشرجت، فأي كلام يواسيه!.

فقمت متجها إلي الشقة بعدما أنهي حديثه المرير بصرخة عالية واتجه إلى مسكنه القريب، استوقفني صوت غاضب خفيض من الغرفة الخشبية المجاورة، فتسحبت نحوها بخفة ونظرت من إحدي الثقوب كانوا مجموعة من الشباب من اتجاهات مختلفة، يجمعهم خيط غليظ يستمسكون به، قال أحدهم للشاب الملتحي:

ــ بصراحة أنا أري أن وجودك بيننا غير مرحب به، يصيبنا بارتكاريا كلما تذكرنا تاريخكم السياسي .. بصراحة أنت بذرة الشقاق المؤجلة.

قال الشاب:

ــ الإسلام بجمع ولا يفرق، واعتصموا...

لم يدعه الشاب ليكمل الآية، وقال غاضبا:

ــ وهذا أكبر الأسباب الذي يدعونا للتخلص منك في حراكنا، خطابكم الديني الذي يستميل الضعفاء والسذج .. تتحول هذه الجموع في الأرياف والنجوع والكِفار بكلمة واحدة علي منبر في خطبة جمعة، ويتحولون لكتلة ضخمة في الصندوق في الكفة التي تخدم مصالحكم.

فقال الشاب:

ـــ إننا ما اجتمعنا هنا إلا لنسعي نحو هدف واحد، إقامة دولة ديمقراطية تحترم رأي المواطن، أم انك تدعو لديمقراطية المدينة الفاضلة.

قال اليساري بعينين حمراوين:
ـــ أنا اتفق مع صديقي تماما، وجودك ليس مرحب به.

فقام الشاب الملتحي قائلا:

ـــ إذن سأرحل، ولكن إن كنتم تقلعون بذرة الشقاق فأنتم تذرعون بذرة العنصرية والديكتاتورية أيها الثوار.

قام أحدهم فهدأ الحوار قائلا:

ـــ نحن جميعا هنا لهدف واحد، واظن انه من المبكر جدا ان نصفي حساباتنا القديمة، لكل دوره فلا يحيد عنه.

تملكتني رغبة قوية لقتلهم، فجأة شعرت أنني أشم رائحة دمهم ومتعطش له كمصاصي الدماء، أو أن أحرق عليهم غرفتهم الخشبية تلك ثم آكل لحمهم المشوي وأشرب دمهم ساخنا، فما الذي يمنعني، إن كنت في حلم فلا قضية، وإن كان كل ذلك (واقع حقيقي) فهو القضية التى يجب أن تُنظر وليس ما فعلت بهم.

شعر أحدهم بوجود حركة بالخارج فتحركت مسرعة نحو غرفتنا وجلست في ظلامها، سمعت حركة تقلب مينا على فراشه، سرحت في الظلمة، وجال بخاطري كل ما مر بي، وما حل بي وبمصر من مشكلات، فيعتصرني الهم وتتآكل مرافئ عقلي من التفكير الذي لا يهدي لشيء مفيد ولا ينتهي لأمر مقنع ..

ـــ لو كنت أعرف أنك ستنزل إلى الرجل لنصحتك بعدم الذهاب.

سكت ولم أرد، يبدو أن مينا كان على علم بحال الرجل وشكواه، ويرى أن مثل هذه الأمور وأمثالها صارت أمرا طبيعيا في مصر الآن، ترى كم من المفاجآت سترها جهلي عني، وكم من المصائب لا أعرفها .. لم أعد أحتمل، بلا مبالغة لم أعد أطيق سماع أي شيء جديد .. كفى.

قام مينا فأضاء الأنوار، وأخرج علبة سجائره من جيبه وفرق عينه التي لم تغفل وناولني سيجارة، وقال لي مهونا:

ـــ هون على نفسك يا صاحبي، لكل ليل نهار.

فقلت بنبرة ضعيفة مجهدة وأنا أنفث دخانا كثيفا من فمي:

ـــ لكني لا أريد أكثر من أن أعرف ماذا يحدث، أن تنام وتقوم تجد الدنيا قلبت رأسا على عقب فتلك الأساطير بعينها.

فتنهد مينا وتمتم مستغفرا وسكت، وشردت عيني في زجاجة المياه الموضوعة بالقرب من مينا، فتساءلت في شرودي:

ـــ كيف يصل النيل إلى ما وصل إليه؟ ماؤه مر، ويصيب بالأمراض، ونستورد المياه أو تنعم به علينا بعض الدول، ومصر هي هبة النيل، كيف يمكن للعقل أن يصبر على ذلك.

فقال بنبرة هادئة لا تخلو من حزن:

ـــ كان هذا متوقعا، لقد فسد النيل بأيدينا من كثرة ما يلقي فيه من مياه صرف، وحيوانات نافقة، ومخلفات كيميائية قاتلة، وتسريبات النفايات النووية، هذا غير المشكلة الأكبر التي لم نستطع التعامل معها؛ أنسيت أن علاقتنا قد ساءت كثيرا بدول حوض النيل منذ زمن وكانت هذه فرصة سانحة لإسرائيل أن تضع قدمها ويدها في هذه المنطقة المهمة بالنسبة لنا ولم ننتبه .. فلنلم أنفسنا.

ـــ لعنة الله على إسرائيل.

ـــ نعم .. ولكن العن الغباء والجهل قبلها.

ـــ المياه هي أكبر أزمة تواجه الكيان الصهيوني ولكن هناك طرقه عديدة في حلها وحل كل ما يعترض استمرار وجودها من خلال إخوانها العرب، وأزمتها هذه ساهمت مصر في حلها قدر استطاعتها، ففي صدر شبابي وبداية عملي كصحفي مرتزق تعرضت بالكتابة لمشروع ترعة السلام، وقتها كتبت مقالة بعنوان "ترعة السلام هل هي تحقيق لحلم هرتزل" كنت أظن أن الصحافة حرة كما درستها بكلية الإعلام، فكتبت حول مشروع تيودور هرتزل الذي قدمه في بداية القرن العشرين للحكومة البريطانية لإيصال ماء النيل إلي سيناء ثم إلي فلسطين، كانت أصداء المقال جماهيريا جيدة، لكن سياسيا كانت أسوأ مما أتخيل فسجنت لمدة ثلاثة أشهر دون أن أعرف السبب، لكن الحجج التي ساقوها أنني أعرقل التنمية في سيناء ونهضة الوطن، وكانت أغرب التهم التي وجهت إلي: ترويج العداء ضد أمريكا وإسرائيل!.

ومن يومها سكت، والسكوت بأرض الخطأ إما أن ينزع بك إلي الجنون أو الانتحار، أو ينزع بك إلي النفاق .. فأصبحت منافقا.

وشرد مينا وأخذ يدخن سيجارته في هدوء مصطنع، واستاء لّما عرف عني أنني أعمل بالصحافة واتهمني بعينيه الساخرة أنني سبب فيما وصلنا إليه، وساد بيننا صمت تابعنا فيه تدخين سجائرنا، ثم نظر إلي نظرة غاضبا وهو ينفث دخان سيجارته التي أوشكت على الانتهاء

ــ تعمل بالصحافة!.

ــ كنت أعمل لكن الآن ..

قاطعني بحدة قائلا:

ــ "الآن" أنت تتحدث عن الآن؟ أين الحياء، "الآن" وما فيه أنت وأمثالك السبب فيه.

فقلت محتدا:

ــ أنا لم أكذب يوما كل ما كنت أكتبه ...

فقاطعني بحدته التي لم تهدأ:

ــ "لم تكذب!".

وأطلق ضحكة عالية متقطعة حتى هدأت على شفتين عابستين، وأردف قائلا بنبرة هادئة هدوء الموج الغادر:

ــ ربما أستطيع أن أصدقك أنك لم تكذب، تستطيع أن تحلف صادقا بذلك أنت وأمثالك أنكم لا تكذبون على الشعب .. أنا أصدقك أن الإعلام لا يكذب ولكنه يضلل ..

وأخرج سيجارة أخري وأشعلها، ثم عادت نبرته الهادرة كأعنف ما تكون، فتابع قائلا:

ــ تنكر أنك كنت بالمطبخ السياسي وبالقرب من صنّاع القرار، تنكر أنك كنت ترى مهازل في حق هذا الشعب وتغض نظرك عنها وكأنك لم ترها، تنكر أن ضميرك المهني والوطني كان ينكر أشياء وقت كتابتها وكنت تخدعه بأنك .. هه "لا تكذب" ... تنكر أنه لو عرضت لك وجهتي نظر في أمر ما ـ عام ـ كنت تقدم ما يرضي النظام وفقط . و "الآن" تنكر أنك سبب في هذا الـ "الآن" ؟.

الإعلام يدخل بين المواطن والحقائق، فيبني حائطا شاهقا يحجز المواطن عن تلك الحقائق، ثم يكتب الإعلام ما شاء على هذا الحائط، فيقع المواطن أسير ظل الحائط فلا يرى سوى ما يرى الإعلام، وهذا ما كنت أفعله بدقة، التضليل والتدليس.

ومن مهام المثقف عموما والصحفي علي وجه الخصوص تحويل زوايا الرؤيا التي ننظر من خلالها الي القضايا العامة بحيث تصب في صالح المواطن وليس في كيفية تكبيله وإحكام خداعه.

كان القمر ساطعا مكتمل الوجه في هذه الليلة ، لكن ضوءه رماديا، ألقي بأشعته على وجه مينا وهو ينظر إليه من النافذة الحديدية خلفه بعدما قال ما قال، لكني لم أرد عليه، اكتفيت بالصمت المرير، وقد أعذرته فيما قال.

ومضى وقت وهو ينظر إلى القمر ساجي العينين يابس الشفاه مهموم الوجه، فكسرت حاجز الصمت بلطف قائلا:

ــ يبدو أن بينك وبين القمر سر.

فقال برقة وهو ينظر إلي القمر وقد أترعت شفتيه اليابستين بابتسامة صافية رطبتهما:

ــ سر واحد؟ بل أسرار وأسرار، أصغرها يكبر ما بينك وبين صاحبة المطعم.

تفوهت بضحكة ثم سألته:

ــ ماذا كنت تعمل فيما مضى؟.

أطلق ضحكة رجّت أرجاء الغرفة وسكت.

فأبديت دهشتي فقال ساخرا:

ــ كنت ضمن الخمسة وعشرين بالمائة العاطلين في مصر عن العمل.

ــ لا تحزن، فمصر كلها كانت عاطلة إما عن العمل أو عاطلة عن الفكر.

أبتسم ساخرا، فأردفت قائلا:

ــ كيف حدث لك ما حدث؟.

التفت إلي وقد ازادت ابتسامته الساخرة:

ـــ لا أدري .. غير أنني وجدت نفسي في هذا الوضع الغريب، بلا عائلة وبلا بيت وبلا بطاقة، كل ما أعرفه أنني مصري واسمي مينا ومن صعيد مصر .. حاولت مرارا أن أفهم، فذهبت أولا إلي الكنيسة أسأل رعاتها فوجدت قساوسة غير ما عهدت بقساوسة الكنائس التي أعتادها، يتحدثون بلهجة متعصبة شديدة التعصب ولهم أفكار غريبة، كأنهم يتحدثون عن مسيحية لا أعرفها، فأخذني الخوف منهم مأخذه، فذهبت أبحث عن حل هذا اللغز واعتزلت دعوتهم لي بالهجرة إلي الدولة المسيحية الناشئة في الصحراء الغربية، حتى قابلتني وأنا في غاية اليأس والحزن حتى أوشكت يومها أن أقتل نفسي لكن الله رحيم.

فابتسمت قائلا:

ـــ إذن أنت مسيحي.

فرد ضاحكا:

ـــ قلت أن اسمي مينا.

وعلت ضحكاتنا الحزينة حتى أضجت سكون الليل الجاثم على نفوسنا بهمّه وغمّه.

هدأت ضحكاتنا بعد لحظات، استلقى خلالها مينا على كنبته ووضع قدمه اليمنى على اليسرى وأشعل سيجارة أخرى.

ـــ وأين ليلى؟.

ـــ أمي؟ .. لا أعرف لها مكانا، سألت نفسي هذا السؤال بعدما بحثت عنها في كل مكان ولكني عجزت عن إجابته .. لماذا تتركني تائها ضائعا دون أن تأخذ

بيدي، دون أن ترشدني، دون أن تقول هل تحبني أم تكرهني، فقسوتها ليس لها حدود ولم أعد أحتملها حتى قررت مفارقتها إلي بلد أخري، لكنها كبلتني بحبي لها وعدم قدرتي على البعد عنها، هل رأيت أما كهذه من قبل؟

ـــ نعم .. أمي.

لم أشأ تعكير صفونا المصطنع بالتعليق على (الدولة المسيحية) في الصحراء الغربية، فهذا كغيره كان متوقعا، كانت بدايته لما أنشئت محافظة بشكل جديد في وادي النطرون ولم يكن هذا صدفة، بل مخطط انفصالي امتد العمل عليه من قِبل مسيحيين متطرفين على علاقة وثيقة بإمريكا وإسرائيل لتفتيت الدولة المصرية يدعمه ملياردير مسيحي ..

وكانت البداية التوسع الغريب الملفت للنظر لدير الأنبا مقار!.

إن المنطقة حيوية لا ينقصها شئ على الإطلاق حتي تقام على رمالها دولة مكتملة الأركان، فببطنها نهر جوفي يمثل خزان عملاق للمياه الجوفية يبلغ طوله ألف وتسعمائة كيلو متر، غير خام البترول والغاز الطبيعي .. غير ممر التنمية.

٩

عزمت في هذه الليلة أن أستيقظ مبكرا قبل مينا وأتجه إلى الإسكندرية حيث ألتقي بأقاربي بسيدي بشر، فربما يفهموني شيئا عن هذا العبث الذي يحيط بي طالما عاملني أهل القاهرة كمجنون يجب اجتنابه، لكن صديقي سبقني بالنزول فاستيقظت فلم أجده، يبدو أنه ذهب لسرقة طعام الإفطار ريثما أتقن مهارته ونتناوب على إحضاره بالطرق الملتوية، فمضيت إلى موقف سيارات المحافظات، بعد تعب شديد في البحث عنه، ربما أنا الآن بالمرج.

وصلت إلى الموقف وتتبعت اللافتات لأعرف أين تقف السيارات المتجهة إلى الإسكندرية، فطفت بالموقف كله عدة مرات حتى كلّت قدمي فلم أظفر باسم الإسكندرية بين الأسماء القليلة الموجودة، فجلست تحت إحدى المظلات أستظل بها من حرّ الشمس الحارق، فجلس بجانبي أحد السائقين وبيده كوبا من الشاي، فقلت له:

ــ من فضلك ..

ــ أؤمر يا سعادة الباشا.

ــ أين السيارات المتجهة إلى الإسكندرية؟.

فنظر إليّ الرجل نظرة جامدة سرعان ما تبددت وانفجر ضاحكا في وجهي وأخذ يرشف الشاي في سكون، ثم أعاد ضحكته العالية التي لفتت انتباه بعض الركاب، وسرعان ما ذابت ضحكته وتحول وجهه إلي الحزن والأسى وقال بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه:

ـــ الإسكندرية .. ياااااااه.

فأعدت عليه سؤالي، فنظر إليّ نفس النظرة لكنها كانت أشد جمودا، وأفرغ ما تبقي بالكوب وقام متأففا ومضى وهو يقول:

ـــ أصبحنا وأصبح الملك لله.

فوضعت رأسي بين كفي وأطرقت إلى الأرض ...

وظللت على حالتي هذه حتى أخذتني سنة من النوم ففزعت لغلام يصيح من رجل يضربه ضربا مبرحا، لكن أحدا لم يتدخل لإنقاذ الغلام، فتابعت من بعيد ما يحدث كغيري، فما مر بي قد أجهد بداخلي كل عاطفة نبيلة كانت تخرج في مثل هذه المواقف، وتبين لي أن الرجل أبوه يعلمه بالعنوة كيف يكون سائقا ماهرا منذ الصغر، فانتابتني رعدة عقلية، فهذه عاداتنا لا تخفي عليّ إطلاقا، وغيرها الكثير مررت به في الفترة الماضية، ومع ذلك فالشواهد الأكثر تدل على النقيض تماما، فأي الأمرين أصح؟ أم أنني في دولة أخرى متشابهة الأخلاق مع مصر، أم أن شعب مصر انتقل جملة إلى دولة أخرى؟. وظلت تعصف بعقلي عواصف لا تهدأ، حتى أخذني الوسن من جديد فأغمضت عيني فنمت، رأيت خلال نومي أحلاما مرعبة مفزعة لكنها لا تفصح عن شيء ولا تهدي لسبيل، ولم أزل نائما حتى أيقظتني امرأة شابة في مثل سني تبحث عن حلي لها فقدته صباحا، كان الوقت ليلا في حدود الثانية عشرة صباحا، يبدو أنني نمت كثيرا من التعب الذي حل بجسدي، فوجدت نفسي مفردا، بعدما خلا الموقف من أي أحد سوى السيارات.

فسألتني عن حليها فأخبرتها أنني لم أجده، فمضت منكودة حزينة، فناديتها:

ــ كيف يمكنني الذهاب إلي الإسكندرية؟

فقالت بأسى:

ــ الإسكندرية؟ لقد ذهبت الإسكندرية كذهبي إلى غير رجعة.

فتقدمت نحوها ذاهلا لا أتمالك قدما تحملني.

ــ ذهبت، كيف ذهبت؟ .. ماذا تقولين أيتها المجنونة؟.

فنظرت إلي باستنكار ولم تنبس بكلمة، ومضت ناعية حظها لفقدان حلّيها متمنية كل سوء لمن وجده ولم يعطه لها، ورجعت بظهري حتى اصطدمت قدمي بمقعد المظلة فارتميت عليه، وقررت ألا أذهب من هذا الموقف حتى الصباح لحين وجود أي إنسان يحل هذا اللغز السيئ.

تحسست جيبي لأخرج سجائري فوقعت القدّاحة وتدحرجت أسفل المقعد، فاستويت جالسا ومددت يدي أتحسسها فعلقت بيدي حلقة ما، فجذبتها فإذا هي خاتم نفيس جدا، مصنوع من أندر الأحجار الكريمة في العالم (بينايت)، ولكن أنّي لهذه الفقيرة المهلهلة أن تمتلك خاتما باهظ الثمن إلي حد لا يستطيعه الأغنياء؟!.

تأملت الخاتم ولمع في عيني كأنما يحدثني وأسمعه .. سقطت سيجارتي من فمي قبل أن أشعلها وفغر فاهي .. معقول؟ إنه خاتم ليلى، نعم .. خاتمها فلا يمكن أن أنساه ولا أنسي كيف اشترته، هذا الخاتم ذو الحجر النادر (البينايت) الذي اكتشفه العالم البريطاني "آرثر بين" عام ١٩٥٠، كانت ليلى وقتها شديدة الفقر والعوز،

لكنها اشترته عام ١٩٥٤، ولمّا كنت أراودها لبيعه كانت تغضب وتقول: إنه تاريخي، ولا يمكنني التفريط في تاريخي مهما كان السبب ومهما كانت الحاجه.

ولكن بعدما ضاع خاتمها، فأي الخواتم ترتدي الآن ..

خاتم روسي أم خاتم أمريكي ..؟.

لكن كيف وصل الخاتم لهذه المرأة؟، أم كانت المرأة مجرد خيال وسراب ؟!.

ارتديت الخاتم في خنصري الأيمن كما كانت تفعل ليلى، ونمت حتى الصباح، استيقظت على صوت السائقين يصيحون بأسماء المحافظات المتجهين إليها، فجالت بخاطري ذكريات ميدان الجيزة ورمسيس والعتبة تلك المناطق المصرية الجميلة علي ما كان فيها، والتي أصبحت ذكرى وخيال.

اقتربت من أحد السائقين وسألته عن كيفية التوجه إلى الإسكندرية، فأنصت لسؤالي باهتمام، ثم انصرف عني بوجهه وتابع صياحه، فوقفت أمام وجهه وقلت مزمجرا:

ــ لابد أن تخبرني كيف أصل إلي الإسكندرية.

ولمح في عيني الحنق، ونظر لأعصابي فوجدها تشتد، ورأي جمرة الغضب تتقد في أوصالي، فقال غاضبا وقد قرّب وجهه لوجهي حتى لامست أنفه أنفي:

ــ لا يوجد الآن في مصر مكان اسمه زفت الإسكندرية.

فقلت بنفس الصوت المرتفع وبنفس الغضب:

ـــ كيف؟ ألم تكن تذهب إلي بحرها في عطلة الصيف وتستحم في شاطئ النخيل وتلتقط الصور التذكارية بقلعة قايتباي؟.

فوكزني بعنف في صدري وقال بغضب أشد:

ـــ أخبرتك ما فيه الكفاية ولا تجدد الأحزان، فارحل عني قبل أن أقتلك.

جذبته بعنف بعدما أعطاني ظهره:

ـــ حدثني يا ابن الكلب، لماذا تسكت ولا ترد؟.

كنت أضعف ما أكون .. أُمسك في عيني دمعها، زامّا شفتي من الحزن، ولو صدقت مع نفسي وقتها لارتميت تحت قدميه متوسلا باكيا وقلت: أرجوك أخبرني.

فدفعني بيدين قويتين فتقهقرت بضع خطوات للخلف وقال بغضب عارم:

ـــ ماذا تريد أن تعرف أيها المجنون؟ فالجهل وتبلد الإحساس الآن نعمة، ولكن .. طيب .. تريد أن تعرف أن الحديث عن ماضينا الذي تسأل عنه الآن أصبح عملا غير مشروع قد يؤدي بصاحبه إلي القبر، تريد أن تعرف أن أي كلمة عن أمجادنا السابقة أصبح في القانون جريمة تفوق القتل، كن كباقي المصرين .. لا تشغل بالك بأكثر من أمرين مثلهم: لقمة العيش، وليلة الخميس، وأضف إليهما سيجارة الحشيش إن كنت في سعة من المال.

أحاط بنا العديد من الناس على إثر الصوت المرتفع ينظرون إلي نظرة استنكار واستهجان، ومضي الرجل بعيدا عني يتابع صياحه، فخارت قواي حتى كادت أناملي أن تلامس الأرض من فرط إجهادي، ومضيت على قدمين ضعيفتين

منهكتين لا أدري لي وجهة أوّليها، وظللت أسير بغير هدى، فطفت بكثير من الشوارع ذاهلا لا يستقر لي نظر على شيء، فكنت أرى الناس كالأشباح ولا أشعر بهم، كأنني سكران أو بي مس من الشيطان، حتي صدمتني سيارة فارتميت أمامها بعدة أمتار، فسال دمي من رأسي وفمي وبهتت الرؤية لعيني فرأيت صور مختلطة لأناس متحلقين فوقي ينظرون إليّ في خوف وقلق يرددون كلمات متشابهة: كـ مصري .. مصري هارب من المستعمرة .. احذروا إنه مصري ..

وكان آخر من وعيت امرأة جاثية على ركبتهيا تنظر إلي بقلق وارتباك وخوف، تحتضن ولد وبنت صغيرين، فطمأنها أحدهم قائلا وقد انفض أغلب الناس من حولي: اطمئني، إنه مصري هارب من المستعمرة.

فاطمأنت، وقامت بطفليها وانطلقت بجواري بسيارتها فاغتسل وجهي بماء الطريق القذر ..

١٠

كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا حينما أفقت من غيبوبتي، كان ذراعي مكسورا مضمدا بالجبس، آلمني بشدة حينما استندت عليه لأقوم، وصاحبه ألم أشد في رأسي المفتوح من الخلف، كانت رأسي ملفوفة بجبيرة بيضاء بدا خلالها اليود واضحا.

لا أدري من أتي بي إلى هنا، لكن المكان يدل على أن صاحبه من أهل هذا الزمان وليس من المصريين أهل المستعمرات ..

الغرفة خالية من أي شئ يكدر النفس أو يتعبها، توافرت فيها أسباب الراحة والسكون في مفروشاتها كالسرير وما يحيط به من كراسي وثيرة، أما جوها فلطيف منعش حيث تناثرت التكييفات أعلي الحائط في يمين الغرفة ويسارها، و بجوار الباب الزجاجي المؤدي إلي حديقة الفيلا استقرت مرآة كبيرة عليها بضع أمشاط رجالي وعلب كريم.

على يمين السرير منضدة صغيرة اكتظ سطحها بعشرات الأدوية ما بين حبوب وشراب وسرنجات وضمادات جاهزة، وأُسند عليها عصا يبدو أنها وُضعت لأتوكأ عليها وقتما أستيقظ.

دارت عيني دورة واسعة في الغرفة وسكنت في سقفها، وانتظرت أحدا يمر بي، وسكنت لصوت العصافير الشادية الآتية من الخارج .. هدأت نفسي وآلامي علي نغماتها فأغمضت عيني فنمت.

لم أستغرق في نومي كثيرا، غفوت لمدة ساعتين تقريبا .. ولاتزال العصافير تشدو، فقمت من رقدتي ببطء، ومددت يدي للعصا فتوكأت عليها فقمت، ومشيت بطيئ الخطي تجاه النافذة حيث قدمي هي الأخري مكسورة، ففتحتها فبرق شعاع النهار في عيني فأغمضتها وفركتها بإصبعي.

ثم فتحتها علي أفنان الشجر المختلف أنواعه وأصنافه ما بين أشجار زينة وأشجار فاكهة على أطراف الحديقة، فهبت على روائح الفاكهة والورود التي تزين أغلب الحديقة.

كانت الحديقة واسعة مترامية الأطراف، يتوسطها نافورة بيضاء علي مساحة كبيرة منها، صوت ماءها هادر جميل، على إحدي جوانبها منحل عسل، يجلس أمامه رجل يبدو عليه أنه مسن لتقوس ظهره .. ساكن لا يتحرك كأنه تمثال.

لاحظت بجوار الباب كرسي متحرك أضيف للحجرة، يبدو أن أحدهم شعر بيقظتي فأحضره لأجلي، فجلست عليه واتجهت نحو الرجل العجوز عبر ممر معبّد بين أسوار الحديقة الشجرية حتي توقفت خلفه.

كان الرجل يجلس علي كرسيه منحني الظهر، مطأطئ الرأس أمام غرفة بها ثلاثة كلاب تصدر نباحا مختلطا بصفير، وما إن توقفت بالكرسي حتي علت حدة النباح وزادت سرعتها، فاعتدل الرجل في جلسته وظل صامتا لبرهة دون أن يحرك ساكنا، وارتفع صوت النباح أكثر حتي ملأ الفيلا ضجيجا وضوضاء لا تحتمل فصرخ فيهم قائلا:

ـــ بس.

فسكنت الكلاب وافترشت الأرض وطأطأت رأسها، ثم التفت الرجل برأسه عن يمينه قائلا:

ــ حمدا لله علي سلامتك.

اقتربت من الرجل أكثر حتي توقفت بالكرسي بمحاذاته:

ــ شكرا لما فعلت من أجلي.

هزّ رأسه لأعلي وأسفل في هدوء ثم أغمض عينيه وشرد ..

كان عجوزا يتخطي العقد السادس من عمره بقليل أو يوشك على الدخول فيه، تركت الشمس طابعها الأصفر القاتم الحار على بشرته فبدت داكنة تميل إلي اللون البني، وبرز وجهه كورقة من كراس هندسي متشعب الخطوط ..

نحيف الجسم غائر العين كثيف الحاجب طويل القامة منحني الظهر من أعلي لتقدم العمر به.

قطع الصمت قائلا:

ــ من أي المستعمرات هربت.

شبّكت يدي واعتصرتهما بعنف حتي سمع طقطقة عظمهما وانكسر نظري نحوهما وسكت.

ــ لابد أن أعرف من أنت حتي أستطيع مساعدتك.

ــ وكيف ستساعدني؟.

ـــ سأهون عليك عبء الرجوع إلي المستعمرة دون المساس بك أو إيذائك، فيبدو أنك خارجها دون إذن أو علم أحد من القائمين على حراستها، وهذا سيسبب لك عنتا عند الرجوع، فهم يحصون المصريين يوميا ويتوعدون الغائب دون علم بالعقاب الأليم.

ـــ تقصد من الغرباء؟.

فقال الرجل بصوت مغيظ يملؤه الخوف والإرتباك والغضب:

ـــ أنت قليل الأدب ومجنون ولا تدري ما تقول ... أسمهم: الملاك، وليس الغرباء كما يطلق عليهم الأوباش في مستنقعات المستعمرات.

أسندت مرفقي على الكرسي وألقيت وجهي بكفي وفركته، ثم ضحكت صامتا ساخرا، وعادت الكلاب لنباحها الهادئ بصوت حزين كأن به صفير.

ترفّق الرجل بها وقال في هدوء:

ـــ هششششش ... مساكين، يفتقدون صاحبها، ينادونه ولكنه لا يهتم بهم ولا يترفق بهم.

ـــ تعرف لغة الكلاب وسلوكها؟.

ـــ نعم فقد صاحبتها ثلثي عمري.

ماذا لو جاء كلب قوي شديد مفتون بجسمه وقوته وسطوته على مجموعة من الكلاب لكنهم أقل منه قوة، فنازعهم على بيتهم وطعامهم حتي ظهر عليهم ودانت له رقابهم، ماذا على الكلاب أن تفعل وقتها.

تراجعت أن أقول ما أردت، فلا داعي للتورية، فالرجل قد أكل عليه الذل وشرب، وسيفطن لمرمي الكلام بلا أدني مجهود، ولازلت أجهل الرجل وعقله، ولكن تباشير كلامه أفصحت عن رضوخه وسكينته لواقعه، ولا يؤتمن مثله على كلام مجنون معتوه أتي من الماضي ليعكر صفو الحاضر الأبله بمبادئه الجديدة التى غرزتها في نفسه ألم مفاجئ للواقع المرير الذي هو سبب مباشر فيه بنفاق قلمه.

ــ يختلط صوت الكلب بصفير أحيانا إذا كان يحن أو يفتقد لصاحبه، أما إذا رأي شئ غريب لا يراه غيره فأراد التنبيه له والحذر منه أطلق نباحا حادا عنيفا مزعجا كما فعل لمّا رآك.

أخذ الرجل يطنب في حديثه عن الكلاب ويستعرض أصوات نباحها وما تعنيه، ويتحدث عن سلوكها وما يصدر عنها وتفسير ذلك وكأنني سآخذ فيها دكتوراه وجئت أطلب خبراته ..

أنتابني قرف نفسي مزمن من الرجل طوال فترة تعاملي معه، كيف يعرف الرجل كل ذلك عن الكلاب ويجهل واقعه!.

انتهي من كلامه وهو يشير بيده نحو قفص الكلاب قائلا:

ــ هؤلاء أخطر وأشرس وأقوي الكلاب في العالم .. بيتبول أمريكي.

أطلقت ضحكة عالية لم أستطع ردها ولا تخفيف سخريتها استرعت انتباه الرجل، فظن أنني أسخر من خبرته فقلت ملطفا:

ــ يال جهلي كنت أظنهم روس.

ــ مضي عهد كلاب روسيا، كنّا نطمئن إلي وجودها زمنا حتي ظهر هذا الهجين الأمريكي (البيتبول) فاعتمدنا عليه في حراستنا وفي الدفاع عنّا ..

انتبهت لفتاة في آخر سور الحديقة تُعد طعاما على منضدة بيضاء بكرسيين حتي انتهت فنادت على الرجل: حاج منصور.

فالتفت الرجل نحوها فقام وأمسك بالكرسي من الخلف ودفعني في طريق المنضدة

ــ الآن يجب أن تأكل وتأخذ الدواء يا ..

ــ حاتم.

ــ حاتم! إسم جميل.

ــ شكرا يا حاج منصور، هل حججت فعلا إلي الأراضي السعودية.

ــ نعم وأديت المناسك كلها .. الحمد لله.

ــ كيف حال الرياض والدمام اليوم.

ــ أي رياض وأي دمام؟.

ــ الرياض والدمام ألا تعرفهما!.

ــ لا.

ــ لا! .. أين ذهبت في السعودية غير المناطق المقدسة.

ـــ ليس هناك في السعودية غير الأماكن المقدسة فقط، يبدو يا حاتم أنك لم تذهب إلي السعودية من قبل.

ضحكت قائلا:

ـــ نعم .. يبدو أن السعودية تستخدم البيتبول أيضا.

جلسنا بجوار قفص عصافير لا يقل حجمه عن قفص البيتبول، كانت طيور مغردة شادية مختلفة الألوان، تعزف سيمفونية ملائكية عذبة ، تظلنا شجرة توت فارعة يانعة

ـــ أكره صيد الطير وسجنه في قفص حديدي للزينة، ربما أكون ضد هذا النوع من الجمال، لكنه يتسق مع مبادئي في حق كل مخلوق في الكون في الحرية، أكره أن أراه مقيدا، عاجز عن حفر الأرض بمنقاره وقرع أبواب السماء بجناحه .. أكره هذا اللون من الجمال.

ـــ وماذا تستطيع أن تفعل لها وأنت عاجز؟.

ونظر إلي الكرسي المتحرك.

ـــ لكل مخلوق الحق في الحرية .. أن يكون طليق النفس والجسم والعقل.

ـــ لا يا عزيزي، الحرية ليست حق مكتسب كما يظن الجهلاء، الحرية تمنح من السلطة بقدر استيعاب الشعوب لها، تماما كجرعات الدواء.

ـــ ماذا لو اجتمعت كل هذه العصافير على خرق أسلاكك.

ـــ بلا شك أنها ستنجح في الخروج من القمقم ولكنها ستفقد بعضها.

ـــ لكنها ستعلم كل طيور الأرض أن بإمكانها التحرر.

ـــ وستعلمني أيضا تقوية السلك ومضاعفة طبقاته.

رمقت الرجل باشمئزاز واحتقار وهو منهمك في طعامه بعدمه ألقي بكلمته، وظل وجهي جامد وعيني كارهة له تحدق فيه، فرفع وجهه فجأة فلاحظ تغيري.

أنت بشخصك سلك من أسلاكها أيها اللعين.

ـــ مالك .. لا يعجبك الطعام؟، هه .. لا يحلم أحد من سكان المستعمرات من أوباش المصريين أن يأكل فضلات هذا الطعام أو أن يجلس على هذه المنضدة أو حتي يمر من أمام هذا القصر.

شكرت له ممتنا وقلت ساخرا:

ـــ مساكين هؤلاء المصريون.

ـــ مساكين!.

جحظت عين الرجل واحمر وجهه وعلته غضبة عارمة، وقال في حنق شديد:

ـــ يستحقون.

ـــ بالطبع يستحقون .. أهدأ.

ـــ يستحقون أكثر من ذلك أيضا، كائنات بشرية تعيش على الماضي التليد، لا تسمع من أحدهم سوي: كان أجدادنا .. كانت حضارتنا .. نحن أفضل الشعوب وأذكاها وأقواها ..

ثم تابع ساخرا:

ــ أمثالهم من البشر انقرضوا من سنين.

صدقت أيها العجوز اللعين.

هدأت لهجة الرجل بعدما وافقته في رأيه بقولي وسكوتي.

ــ كل ، فقد حان موعد الدواء.

انهمكت في تناول طعامي، كنت جائعا إلي حد أنني أفرغت أطباقي، أستغرق ذلك وقتا قضاه الرجل في حديثه متندرا ساخرا من المصريين ومستعمراتهم وحالهم السيئ، ما نغص عليّ لذة طعامي الشهي، لكني أحسست أن الرجل بطريقة ما يسخر منّي، فالآن ينغصني السخرية من المصريين!.

وهل السخرية لا تكون إلا بالنكات والمواقف الهزلية، إنني وأمثالي سخرنا من المصريين بطريقة أشد وأقسي يوم روجنا لهم الوهم، ودلسنا عليهم الواقع، واقتدناهم إلي غير ما يريدون بإرادتهم التي أتمنونا عليها.

ــ الحمد لله.

ــ بالهناء والشفاء.

ــ شكرا لكل ما فعلت وتفعل لأجلي.

ــ لا تشكرني ثانية أيها الهارب.

تقبلت داعبته الثقيلة وتحسست رأسي بتوجع ..

ـــ ها قد حضر الدواء.

أتت ابنته تحمل صينية عليها بعض أدوية ما بين حبوب وشراب حتي وقفت أمامي ..

استرعاني جمالها .. فتوقفت عيني عليها ولم تعد لغيرها، وكأنني انخلعت بها من هذا الوجود إلي وجود آخر مختلف عما نحن فيه، لم يرافقنا صحبتنا سوي العصافير الشادية والظل وشجرة التوت وهذا الماء العذب في يدها ..

فاتنة مغرية، لا يسع أي رجل يراها إلا الوقوع في شباكها الناعمة، صارخة الأنوثة متبجحة الجمال الأنثوي، تُظهر ضُعفا يزيدها إغراء وفتنة، وكأنها تنادي كل أحد: تعال.

انتبهت لها وقد جلست أمامي مكان العجوز اللعين تقرع المنضدة بيدها الناعمة تنبهني، وناولتني كوب الماء وحبة دواء، وعلي شفتيها ابتسامة ساحرة بدت خلالها ثناياها متسلسة في نظام بديع كنجوم السماء.

ـــ أين ..

ـــ ذهب ليصلي، فقد أذّن للظهر.

ـــ هل والدك مسلم؟.

ـــ هو يصلي.

أفرغت بعض الدواء من زجاجة في ملعقة كبيرة ومالت نحوي فوضعتها في فمي، بدا ثديها الأبض ناصعا كثمرتين ناضجتين في موسم الحصاد، تتدلي منهما

سلسلة بها واسطة مختلفة الشكل غريبة الهيئة لم أعدها في حلي النساء من قبل، لم أسألها عنها، لعل هذا الشكل من إفرازات هذا العصر.

قامت وأمسكت بمؤخرة الكرسي ووجهته نحو الغرفة الملحقة وهي تقول:

ــ يجدر بك أن تستلقي على سريرك فالدواء سيداهمك بالنوم عمّا قليل:

ــ ولكن .. أريد التحدث معك.

ــ أمامنا وقتا كافيا للحديث فيما بعد.

ساعدتني في القيام عن الكرسي والاستلقاء على السرير، ثم خرجت تحضر صينية الدواء فتابعتها ببصري حتي أتت.

انطلق صوت الشيخ اللعين المزعج ينادي مرددا:

ــ ليلي.

ــ على من ينادي أبوك؟.

ــ يناديني.

ــ أسمك ليلي!.

ــ يزعجك الإسم؟.

ــ لا .. فعلا يجب أن أنام.

ابتسمت وأغلقت أنوار الغرفة والباب وتركت النوافذ خلفها مفتّحة ترفرف ستائرها، تتردد أصوات الطيور الشادية بأرجائها.

رقدت بعد خروجها ساهما، أنظر إلي زجاجات الدواء بلا اكتراث، أخذ صوت العصافير يتلاشي من الغرفة الرخامية الفسيحة، ويبهت شيئا فشيئا في أذني، وذبلت عيني وارتخت، وتهدلت أشفاري على وجنتي وفقدت الإحساس بما حولي .. صدق العجوز بشأن الدواء.

تراودني الأحلام كلما نمت أو غفوت لا أدري لماذا، أهي حالة نفسية، أم متلازمة من متلازمات برجي الفلكي، فأنا برج الحمل؟.

أصبحت كخشبة على صفحة موجة عاتية تقلبها كيفما شاءت دون إرادة مني، ومع محاولاتي المستمرة لكي أثبت إلا أنني فشلت ومع مرور الوقت استسلمت ..

في الماضي كانت تشغلني قضايا متعددة سيطرت على عقلي في مقتبل عمري، كالموت والزواج والحلال والحرام والشرائع والأديان وفلسفة الوجود وكيف يسير ويتفاعل ويتغير ..

كنت أنتقد كل ذلك بعقلي المجرد دونما الإطلاع في هذا الشأن دينيا، وكان نقدي لاذعا للحلال والحرام وما يُقّيد به حرية الفرد ويَغِل من إرادته، ونشرت عدة مقالات في ذلك حتي ظنتني بعض الجمعيات العاملة أنني ملحد!.

وتواصلت معي المنسقة العامة للجمعية حتي أنضوي تحت لواء الإلحاد بشكل عملي معلن، كي يتثني نشر الإلحاد بشكل تنظيمي بأكبر عدد من الملحدين الغير معلنيين أو من لديهم الرغبة في الإلحاد.

ولّما أخبرتها أنني مسلم ولست ملحد وما انتقادي إلا لتقييد الحريات في الشرائع ولا يتسع أكثر من ذلك، سخرت مني قائلة: ولم لا تنتقد قانون الطوارئ وهو القفل المعلق على باب الحريات بمصر ؟ لم لا تنتقد أمن الدولة وهم سجانوا الحرية في هذا الوطن ؟

لا تجرؤ على مناقشة أي من ذلك أيها الأخرق.

انتبهت بعدها أن فيّ عنت تولّد من جهل فأظلم عقلي ولم يبصر، فسلمت بما هو كائن، ومضيت على عقيدة العوام واستغفرت، وعرفت أننا لا ننتقد الدين إلا لأنه حائط مائل في صدور مهدّمة لا تقدر علي حمله.

١١

منذ دخلت هذا الزمن وأنا أخشي النوم، وإن كان الواقع أشد ألما من أحلامي اللا منطقية، إلا أن الشئ المريح فيه هو أنني أكون في تعداد الموتي، وأنني أقترب أكثر من تحقق أمنيتي .. الموت.

استيقظت مع دقات الليل الأولي للوجود ، كان الألم قد خف من رأسي وقدمي بعض الشئ ، فقمت متوكئا علي عصاي وأضأت أنوار الغرفة، لمحت على الكرسي المتحرك بذلة سوداء أنيقة وحذاء أسود، وعدد من علب السجائر ووّلاعة فأخذتهما وذهبت إلي الحمّام.

أشعر بقرف زائد تجاه نفسي، وأتحاشي النظر لوجهي في المرآة.

وقفت أسفل الماء ما يقرب من ساعة، تتنزل قطراته على ظهري على مهل وأنا مسند اليدين إلي الحائط، لعل نفسي تنتعش وينتقض عني هذا القرف.

يدهشني موقف العجوز لمساعدني وعزمه على مزيد من المساعدة، فتقاليد المجتمع لا تسمح بهذه الأخلاق الآن .. ذلك يقلقني، أو لعله من حسنات القدر في تلك الأيام.

ارتديت ملابسي وخرجت نحو حديقة القصر كما يطلق عليه حاج منصور أتوكأ على عصاي حتي وصلت إلي مجلسنا الأول أمام قفص البيتبول، فجلست على كرسي ومددت قدمي على كرسي أمامي.

أشعلت سيجارة وأسندت رأسي للخلف أدخنها في هدوء الليل المخيم كالقبة في سماء الحديقة وسكون صفير البيتبول ..

ــ تسمح لي.

فتحت عيني، كانت ليلي تستند على ظهر الكرسي المقابل بذراعيها، فسحبت قدمي

ــ تفضلي.

جلست مبتسمة رائقة الوجه، أضاءت مصابيح الحديقة ذات اللون الأصفر الهادئ، فلمع شعرها الذهبي في ضوءه فبدا حول رأسها كهالة ذهبية حول الشمس ، وتحول صدرها الأبض إلي لون نحاسي لامع ، تشبث بصري بها وسكت ، فابتسمت قائلة:

ــ كيف تشعر الآن، آراك أفضل.

ــ الحمد لله.

ــ الحمد لله ؟!

قالتها بدهشة وعكفت حاجبيها ثم أردفت:

ــ هل أنت مؤمن؟

ــ مؤمن بماذا؟

ــ بأي شئ .. بالطبيعة، بوحدة الوجود، بحجر، ببقرة، بقوي عليا غيبية.

صدمني كلامها فتلعثمت ولم أستطع الرد بشئ، وسكت لبرهة ثم قلت بصوت خفيض خائف:

ــ أنا مؤمن بالله ومسلم.

هزّت رأسها وسكتت وأشاحت بعيدا ..

ــ وأنت؟

نظرت إلي لثوان وقالت بابتسامة خفيفة:

ــ أنا لا أؤمن بشئ ، ولكنني لست كافرة أو ملحدة، فأنا أكره هذه المسميات كما أكره لفظ الإيمان، فالدين في هذا القصر خطيئة تهدد وجوده .. هكذا تربينا.

ــ الدين هو الفضيلة الأكبر في هذا الوجود، والخضوع لرب الكون ليس خطيئة، وليس أفضل من الدين إن تحلي أهله بأخلاقه في الحفاظ على هذا القصر، فهو يمنع السرقة والقتل والخيانة والغدر وغيره، وليس من قانون يستطيع أن يكون رقيبا على النفس البشرية المتقلبة وقت خلوتها إن أمنت العقاب من ارتكاب الجرائم، لكن الدين يصنع ذلك.

سكتت لبرهة وقالت بابتسامة مفعمة بالحياة:

ــ من أين أتيت أيها الهارب؟

أقلقني ابتسامها الغير متسق مع ما ردفه من سؤال، فقلت مترددا:

ــ على ماذا نويتم أن تفعلوا بي ؟

ـــ أطمئن، لن نلحق بك أي أذي، والدي يعدّ لك مفاجأة ستعجبك.

ـــ لها علاقة بالبذلة؟

ـــ تقريبا!

ـــ ماذا تفعلين في هذا القصر؟

ـــ أقيم هنا مع أسرتي وأسرة صاحبه منذ سنين.

ـــ خادمة؟

فاحمر وجهها كأنه الشمس غائص في الشفق

ـــ لا تقل هذه الكلمة مرة أخري، إننا نقيم مع أسرة صاحب القصر ونقتسم العمل بالتساوي بكل ندية ومشاركة، نحن نقوم بشراء الطعام وطهيه وتنظيف القصر وترتيبه وهم ...

ـــ وهم يأكلون ويناموون .. فعلا ندية ومشاركة!

ـــ دعك من هذا الكلام الآن، عليك أن تقوم لتبدل ملابسك استعدادا للحفلة.

قمت أتوكأ على عصاي فبادرتني ووضعت ذراعي الأيمن على كتفها، زاد قرفي واشمئزازي من نفسي، حتي أنني لم أشعر بحرارة أنوثتها وهي تحت ذراعي أضمها ..

ومرّ أسبوع على الحفلة التي أقامها صاحب القصر السيد عنايات مندور، وهو رجل سمين لا تظهر رقبته فوق جسده لفرط حجمه، أبيض الوجه مشرئب

بحمرة، أصلع الرأس، يرتدي نظارة نظر تميل إلي اللون البني، متكبر غليظ الأخلاق مع من دونه.

قدمني له حاج منصور قائلا:

ـــ هذا هو يا سيد عنايات.

يبدو أنه كلمه عني قبل لقائي به، فابتسم لحاج منصور ثم تحولت عينيه نحوي فرمقني بنظرة جامدة ثم عاد لحاج منصور كما كان.

ـــ تمام تمام.

وأشار بيده لنا أن ننصرف، فسار معي خطوتين فالتقطتني ليلي وناولتني عصاي وسارت معي إلي الحديقة مترنحة تتحامل على ذراعي لشمالتها.

كانت فاتنة في تلك الليلة أكثر من أي وقت مضي، ارتدت فستانا أزرق عاري الظهر والصدر مفتوح من جانبه الأيمن حتي أعلي فخذها، تعانق عبير عطرها برائحة الخمر المنبعثة من فمها فبدت جمرة أنثوية مشتعلة في ليلة شاتية مرعدة لا يسع المرء أمامها إلا التدفئة بها.

جلسنا أمام قفص العصافير فجذبتني لأجلس بجوارها فجلست، فارتمت على صدري وتحسست شعري بيدها، ووضعت الأخري في صدري فدفعتها برفق وقمت متجها إلي غرفتي المقرفة، فسمعت سقطة على الأرض خلفي فلم ألتفت.

١٢

شفيت تماما من آثار صدمة السيارة ، وعلى استعداد للذهاب لاستلام عملي بمطعم في باخرة نيلية ، كانت هذه هي المفاجأة التى خبأها لي الرجل على ما ذكرت ليلي من قبل.

كانوا قد أحضروا لي ملابس جديدة، ووضعوا دولاب بالغرفة ملئ بالملابس والأحذية، فارتديت قميص أبيض وبنطلون أسود وحذاء أسود.

أوصلتني ليلي بسيارتها إلي الباخرة، وهي باخرة مطعم برج القاهرة الذي رأيته من قبل وهو تحت الإدارة الأمريكية كما ذكرت لي ليلي.

قالت ليلي مادحة الباخرة أنه شرف لي العمل بها، فمجرد الدخول لتناول مشروب مكلف للغاية وباهظ الثمن، ولا يمكن لأحد العمل بها إلا عن طريق من له وزنه السياسي والإجتماعي.

كان السيد عنايات مندور من رجال السياسة والوجاهة في المجتمع، فهو أمريكي متمصّر، تزوج مصرية بأمر من السفارة الأمريكية، وأسس حزبا سياسيا للدفاع عن حقوق المصريين المعدومين، وكان يرأسه!.

أما الحفلة فكانت شكلية ، فهذه الطبقة من الملاك ومن على طريقتهم من المصريين المتغربين، تستهويهم معاناة الفقراء والإستماع لأنّاتهم، وينتهي الحفل بتبرعات لهؤلاء التعساء.

سألت بعدها ليلي عن مصير تلك الأموال الكبيرة، هل تصل بالفعل للفقراء؟

فأجابتني: بالطبع لا، تنفق على تجهيزات الحفلة القادمة.

أظن أن الحفلة لم تدع أحد من رجال السياسة والوجهاء وصناع القرار إلا وتواجد بها.

لكني إلي الآن أجهل السبب الحقيقي لمساعدتهم لي، أثناء تفكيري أرجعته إلي اختلاف مظهري وشكلي وطريقة كلامي المعجونة بالنفاق وقت أن كنت أعمل بالجريدة، فتطبعت نفسي على مدح الفاسدين وتقريظ فعالهم المشينة مهما كانت!.

أوصلتني إلي الداخل حتي قابلتني بدنيال نعيم عمران مديري في العمل.

رجل طويل أبيض، أزرق العينين أشقر الشعر خفيف الظل، من أب مصري وأم أمريكية، كان زواج الوالدان غلطة لم تغفرها أسرة الأم لها، فقد خافوا أن تنتقل إلي نسلها الأخلاق والعادات العربية وخاصة المصرية وينزع الأطفال إلي المستعمرات، فقد كان والده ممن انتخبوا (انتخاب طبيعي) وخرجوا من المستعمرات للعمل بإحدي القصور وتلقي تعليما جيدا وعمل محاسبا بإحدي الشركات الأمريكية بالقاهرة، وهناك تعرف على زوجته، وتم فصله من الشركة بعد الزواج وعمل عن طريق بعض معارف زوجته بهذه الباخرة، حتي مات وخلفه دانيال.

سعد بوجودها دانيال، فقبلها عندما رآها ورحب بي لمرافقتي لها ..

قالت مخاطبة دانيال المبتسم وهي تشير الي بكفّها:

ــ حاتم.

ـــ أهلا وسهلا شرفت.

فشكرته لترحيبه وذوقه البادي على وجهه، وضغط زرا بجواره فدخلت امرأة شابة ترتدي زيا أزرق اللون به نقوش حمراء وزرقاء خاص بالعاملات بالباخرة، فأشار لي بيده

ـــ تفضل.

فاصطحبتني للخارج وتركت ليلي ودانيال بمفردهما ..

دخلنا غرفة أخري فسيحة تخص العاملات، بها حافظات حديدية بطولها وعرضها، وفي أولها مكتب جلسنا عليه، تكلمت ماري ـ كما أخبرتني باسمها ـ عن الشغل والمهام المنوطة بي فأسهبت، أول يوم سيكون مطالعة عملية لسير الزملاء أثناء فترة العمل ..

كانت ثرثارة أكثر من اللازم، تتكلم كأنها تعالج من مرض الصمت، كنت على وشك أن الكمها في أسنانها، وبعد وقت ثقيل قامت بي إلي الخارج لأتعرف على الباخرة وأقسامها وأيضا على الجزء الخاص بمبيتنا وبمحيط عملنا ..

الباخرة فخمة مبهرة ، مزينة بلوحات إيطالية كلوحة (الموسيقيين) لكارافاجيو، و (الحفل) لتيتيان وغيرهما.

بدت كخلية نحل، الحركة سريعة لا مجال لإضاعة الوقت هنا، عمال النظافة لم يتركوا ثغرة في الباخرة إلا وصلت أيديهم إليها، في داخل القاعة تناثر الجرسونات لتهيئة النضد وفرشها بمفارش نظيفة أتت لتوها من المغسلة، بالإضافة لفتيات يقمن بتنميق المزهريات وتغيير الزهور بها.

مسئولو الصيانة كانوا أكثر الناس انتشارا، يقفون بالردهات يتفقدون مصابيح الإضاءة ويقومون بتغيير التالف منها، كذلك كانوا الأكثر تواجدا داخل القاعة أسفل الثريات، وبجوار أجهزة التبريد والنوفذ الزجاجية التى تعمل بنظام الغلق الكهربي.

مررنا بردهة بها غرف متعددة مختلفة الوظائف، كان آخرها غرفة ذات لون أحمر مختلف بلونه عما سبقه، فسألتها عنها، فابتسمت وأخبرني أنها للخلوات أتمني أن نأتي هنا قريبا.

استغرقت جولتنا وقتا تعرفت خلاله على المزيد من أصدقائها، ثم تركتني على شفيرها أتأمل منظر النيل ومنظر غروب الشمس على صفحته، كادت أن تحضرني أحزاني وينسكب دمعي لولا أن تداركتني ليلي.

ـــ كيف الحال الآن؟

ـــ الحمد لله.

ضحكت بصوت عال، ثم قالت:

ـــ سأذهب الآن للقصر وسأعود بعد أربع ساعات.

ـــ ستأتين لاصطحابي؟

ـــ لا أنا أعمل هنا ولكن لست مقيدة بوقت.

ـــ ماذا تعملين؟

ضحكت، وقالت وهي تنصرف:

ـــ آراك بعد أربع ساعات.

جاءتني ماري تخبرني أن دانيال يطلبني فذهبت إليه، فابتسم في وجهي ورحب بي ثانية، وطلب لي مشروب فأحضرته ماري ..

قاربنا الساعتين في جلستنا، تحدثنا في كل شئ، لكنه لم يسألني من أين أتيت طالما حضرت إلي هنا عن طريق عنايات مندور وبصحبة ليلي، وحتي لو سأل فقد كوّنت كذبة في رأسي تختلف كلّيّة عن حقيقتي سأرويها إذا اضطررت لذلك.

الرجل واسع الثقافة لكنه لا يثبت في موضوع واحد لمدة دقيقتين، ذو سخرية لاذعة لمجتمعه ولا يقر له بفضيلة، ذكرني كثيرا ببرنارد شو.

انهي الرجل جلستنا ريثما أذهب إلي غرفة ذكرها لي لأبدل ملابسي وأرتدي زي الباخرة، يبدو أنه أرسل لي للتسلية ليس أكثر.

للمرة الأخيرة مسح عمال النظافة الأرضية بماء مطهر مضاف إليه عبير الورد، ثم قاموا ببث جواها عطورا بكثافة.

مرّ الوقت ودخلنا في أجواء العمل ..

الصالة كبيرة، ملحق بها ما يشبه المسرح تتوالي عليه الفقرات الترفيهية من رقص غربي ورقص شرقي (كما كان يسمي سابقا)، وغناء وفقرات تمثيلية كوميدية.

ولا يخلو مطبخها من صنف من الفاكهة أو اللحم أو الأطعمة أو الأشربة أو الخمور. كانت الباخرة عالم ترفيهي بمفرده مستقل عن الوجود.

روادها في الطبقة العليا في المجتمع أمثال من حضروا في الحفل الخيري بقصر عنايات مندور، لكني لاحظت بعض ممن هم دون هذه الطبقة يجلسون بركن ناء بعيد عنهم.

كانت الحركة في الصالة من جهتنا (كجرسونات) تعمل في دأب كخلية النحل، بين حامل لأطعمة، وحامل زجاجات الخمور، وواقف للنظافة الفورية ..

أما أنا فليلتي الأولي مشاهدة وفقط، مجرد تمرين لا أمارس أي عمل خلالها إلا تحت إشراف أحدهم أو إن احتيج إليّ في حاجة ماسة.

انتهت غنوتين أو ثلاث لمطرب روسي حيّاه الحضور بتصفيق باهت بعض الشئ، يبدو أن الصراع البارد بين أمريكا وروسيا لا يزال مستمرا إلي الآن. ورفعت الستار بعد دقائق على ثلاثة راقصات أمريكيات أشعلن الصالة تصفيقا وترحيبا، انتبهت لهن مشغوفا وتابعت بنشوة وسعادة عروضهن الثائرة.

فاجأني دانيال الذي لم أشعر بوجوده بجواري قائلا:

ـــ يعجبنك!

ابتسمت وتابعت رقصهن وكأنني لم أشاهد مثله بصالات الفنادق الكبري أثناء الحفلات الخاصة التى كان يقيمها بعض الزوار العرب كنوع من المجون الشاذ وقت وجودهم بالقاهرة.

فقال الرجل جادا:

ـــ لا تشغل بالك بهن، أنت لست ضيفا هنا، تابع العمل.

انتبهت لقوله ونفذته على الفور، فأردف قائلا:

ــ يجب أن تكون حذر في تعاملك مع هؤلاء.

ــ لا تقلك دانيال ، تعاملت معهم من قبل.

رفع حاجبه ونظر نحو الراقصات وقال:

ــ لا أظن!

وتابع الصالة بعينيه، كان يتفرسهم بالواحد وينقم عليهم، يطلق عليهم (الخليط الغير متجانس المتجانس)، ولا يحترم فيهم رجلا ولا امرأة حتي ليلي.

تكلمنا عن الحضور كثيرا ونحن وقوف واستفسرت عن عدة أشياء خاصة بالعمل فكان يوضحها بالتفاصيل.

قلت ضاحكا:

ــ لو غرقت الباخرة الآن ستصبح البلاد بلا إدارة ولا بواب.

عكف الرجل حاجبيه ورمي برأسه تجاهي دون أن يلتفت وقال:

ــ لكل زمن لصوصه وتجاره.

ــ وهؤلاء؟

وأشرت إلي مجموعة بدا عليهم أنهم على هامش المجتمع الجديد، متعلقين بأهدابه ..

فارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة ـ ازدراهم بها ـ وقال:

ــ المشكلة الكبري لا تكمن في هؤلاء اللصوص سارقوا الزمن وتجاره، ولكن في هؤلاء المتملقين شحاذين الوجاهة ومتسولوا المكانة، إذ أن اللصوص كالقادة بالقلعة، وهؤلاء جنودهم بالميدان يمجدونهم وينافحون عنهم، أغلبهم إعلاميون وصحفيون وفنانون ورجال أعمال مبتدئون.

وخزتني كلمة (صحفيون) فابتلعت ريقي وسكت، وأطنب الرجل في حديثه شارحا لي أبعاد طبقة الغرباء، أو الملاك كما قال لي حاج منصور، فاستفدت منه استفادة كبيرة أثرت على طبيعتي في التعامل معهم.

كان كلامه مفيد جدا، لم تتكرر فيه كلمة واحدة مرتين، إلا هذه الكلمة: لصوص الزمن وتجاره كانت الإستثناء الوحيد، خِلت أنه يقصد أنهم اللصوص الجدد في الحقبة الزمنية الحالية، لكنه أوضح بعد ذلك أنهم يسرقون الزمن ذاته ويتاجرون بأفراحه وآلامه ...

ــ غالبا لا يقدر على سرقة الزمن إلا القوي المتغلب، من يستطيع ـ من أمام قوته وسطوته ـ أن يخدع الناس بجميل السياق وعذب الكلام، فإن كان الناس يبغون التقدم والتحرر ورأوا أنفسهم أهلا لذلك في زمنهم، سرق من أيديهم ذلك الزمن، ووضع بين أيديهم زمنا آخر بمتطلباته وطموحاته وأولوياته، وتلاعب بضرورات وجودهم حتي يقتنعوا أن زمنهم ليس أهلا لطموحاتهم، وعليهم أن يطيعوه وينتظروا من خلاله زمنا آخر، وبحيلته الخبيثة يجعل ذلك ينبع من قناعة المخدوعين أنفسهم، أما إذا فوّت عليه ذوي العقول النبيهة خدعته، وذوي الطموح الصلب كذبته، قتلهم باسم المخدوعين.

دارت عيني عابثة بين النضد، وتفرست أصدقاء العمل الذين لم أتعرف عليهم بعد، لمحت من بعيد أحد الزملاء فدققت النظر بشدة .. كان مينا!.

كيف وصل إلي هنا!

نظر إليّ دانيال فاحصا وجهي

ــ هل تعرفه؟

فقلت ساهما:

ــ لا .. لا أعرفه.

الإنكار أفضل حتي يتبين لى السطح من القاع، وتتضح لي خبايا ما أجهل ..

بعد دقائق معدودة أشار الرجل بسبابته لمينا فجاء يتهادي بين النضد مخافة أن يمس أحد من الزبائن، ولمّا وقف أمامنا ولمحني دارت حدقتاه في عينيه كخائف مذعور يقتفي أثره مخافة أن أفصح بمعرفتي به من قبل.

ــ نعم دانيال.

ــ خذ حاتم معك.

وأشار إليه يعرفني به:

ــ مينا.

ــ أهلا وسهلا.

تشابكت أيدينا بفتور وكأننا نلتقي لأول مرة، وكخدعة للرجل أننا لم نتقابل من قبل، فوجود مصريين على صلة حسنة في مكان واحد غير مرحب به، وتؤدي دائما إلي الطرد كما عرفت من مينا بعد ذلك، لكن أظن على ما بدا على تقاسيم الرجل ولكنته وهو يقول (حاتم ، مينا) أنه لم تنطلي عليه كذبتنا.

١٣

من التقاليد المتبعة مع كل موظف جديد يضاف إلي الصالة أن يظل يتابع بعينه في ليلته الأولي سير العمل دون أن يمارسه بيده، لكني تفاجأت بدانيال يدفع بي مع مينا إلي الصالة! ربما رأي فيّ حماسا ورغبة في العمل!

رافقت مينا تلك الليلة، لم يكن ثمّ وقت نتبادل فيه أي حديث ولا أن نتهامس بشفاهنا، فكل كلامه معي كان في حدود العمل، توجيهات وأوامر لا أكثر بصفته أقدم مني هنا.

لكن عيوننا تبادلت الحديث رغما عنّا، كنا نتساءل، يقول ما الذي أتي بك إلي هنا، أقول كيف نجوت من سرقات الطعام.

يسألني عن حالي وحال من رأيت ومررت بهم من الناس، يسألني عن الوطن كيف هو في الأماكن التي لم يذهب إليها، كيف رأيت الكائنات المصرية المنثورة في كواليس لحياة حيث الظلمة والبرودة ..

أشحت بعيني عنه .. فهل في هذا الوطن أسئلة ؟ إن الوطن كله ليس أكثر من علامة استفهام كبيرة لكنها لم تسبق بسؤال، ولن تلحقها إحابة .. فالمصريون في المستعمرات!.

التقت عيني برائعة الحفل التي أطلت فجأة كقمر سطع من خلف الغمام فأشرقت في ضوءه سنام الرءوس البيضاء والسوداء ..

تبخترت في مشيتها كنسيم مائع بين أزهار الربيع فاهتزت له، أو كحبة ندي تتراقص من ورقة شجر إلي ورقة ورد ..

مرتدية ثوب أسود تجر أذياله خلفها مفتوح من الأمام، نصفه الأعلي شبكي ضيق العيون برز ثديها خلاله دون شئ يستره عن العيون المتلهفة لثمرتيها اليانعتين.

لم تحضر بعد أربع ساعات كما قالت، بل تغيبت ساعتين إضافيتين ، تري في أي عش كنت تغردي يا ليلي قبل مجيئك!

مرّت بدانيال بداية على باب الصالة فسلمت عليه وقبلته، وتبادلا بعض الكلمات والضحكات الغير مسموعة لصوت الموسيقي على المسرح، ثم مرت بين النضد حتي وصلت لمنضدة يجلس عليها ضابط بحرية أمريكي كما بدا من النياشين والعلم الأمريكي على بزته.

هل لمصر اليوم علم! كيف هو؟ هه.

كان شابا ثلاثيني عريض طويل أبيض، قام لها فسحب الكرسي وأجلسها بجواره حتي التصقت به، فتشاغلت عنهما بحديث من حولي من السادة ذوي الرءوس البيضاء من ليس لهم في اللهو سوي كئوس الخمر لتنسيهم عجزهم وضعفهم.

لم تخل الصالة من عرب ومصريين ذوي وجاهة ومكانة، لكن أغلبهم غرقي في نشوة الخمر والنساء.

رجعت عيني إلي ليلي دون قصد، فوجدت الضابط مطبق فمه على شفتيها ويعتصر ثديها الأيمن في يده، فسقطت زجاجة خمر من يدي على منضدة رجل

عربي عجوز لعين أصلع تبيّن لي أنه مصري فيما بعد من دانيال، انكسرت الزجاجة وطاش خمرها على ملابسه ووجه ورأسه ..

ما حدث أمر فظيع لا غفران له، لا من رواد الصالة ولا من دانيال الذي كان يتابع سير العمل من مكانه بجوار الباب ـ وخاصة أنا ـ وهو مربّع اليدين، ففزع وفك يديه وسار خطوات نحونا، واقترب مينا من المنضدة وكله ترقب وقلق وخوف، تتردد عينه بيني وبين الرجل والمنضدة ودانيال، فمد يده مع يدي نلتقط الزجاج المهشم فأشار العجوز بيده أن توقفا، وطأطأ رأسه نحو كأس الخمر بيده فأداره عدة دورات، فتوقف دانيال مع إشارة الرجل لنا فوجد وقوفه بلا معني بين النضد، فبادل الجلوس بابتسامة مغتصبة وتراجع بظهره للخلف يشاهد ماذا سيحدث بقلق.

أشار العجوز لي بالجلوس أمامه فجلست ..

فجأة أفرغ كأسه في وجهي بعنف وهو بائس معقد الملامح، وأخرج مسدسا من جيبه ووضعه أمامه ثم قال لمينا بهدوء:

ــ نظف لي بذلتي.

معنا دائما في الصالة قماشات ـكالمناديلـ نظيفة جاهزة لأي موقف نحتاجها فيه، تقدم مينا بإحداها نحوه وقبل أن تلامسه القماشة قال مزمجرا:

ــ بلسانك يا كلب.

نظر إليّ مينا وزمّ شفتيه، فأمسك الرجل بمسدسه وقرع المنضدة بمؤخرة المسدس

ــ نظّف ..

فاقترب مينا بوجهه من (جاكت) البذلة وأخرج لسانه ـ وهو يدفع الدمع في عينيه دفعاـ وأخذ يلعق الخمر ويمتصه من بين القماش بشفتيه، ثم توقف وانتصب واقفا ..

وضع الرجل مسدسه على صلعته قائلا:

ــ وهذه ..

لم أكن أحتمل، قررت أن آخذ المسدس منه وأفرغه في صلعته، فهممت بالقيام فرأيت دانيال يشير إليّ بيده أن أجلس مكاني وأهدأ.

التصق لسان مينا بصلعة الرجل ولعقها عن آخرها وعينيه كسحابة ماطرة بللت صلعة الرجل.

ــ وهذا ..

وأشار إلي وجهي، فضربت بدانيال عرض الحائط وقمت واقفا صارخا:

ــ لا .. كفي.

فأشار بمسدسه نحو صدري، فتكسرت إرادتي ووقفت كصنم أخرق، فاقترب مينا مني وأخذ يلعق وجهي أمام انتباه كل من في الصالة حتي إذا انتهي ضحكوا ضحكة عالية مجلجلة وصفقوا بحرارة، كانت ليلي الأكثر ضحكا، تتمايل برأسها مرة إلى الخلف ومرة على صدر الضابط، فانطلق مينا خارجا بعدما القي على ليلي نظرة عتاب حزينة متحسّرة، وتبعته فاستوقفني دانيال في الردهة الخارجية ..

ـــ كان من الممكن أن تقتلا الليلة أنت وصديقك الذي أنكرت معرفته، وأقل التقديرات أن أرفدكما وأبلغ عنكما الشرطة وترحلا حالا إلي أي مستعمرة قذرة، لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، لأن العجوز الخرف سيسأل عنكما غدا .. ارجع إلي مكانك.

لمحت ليلي تدلف إلي الغرفة الحمراء مع الضابط الأمريكي، فأمرني ثانية بصوت مرتفع، فانتبهت له

ـــ ومينا؟

ـــ سأرسل له إحدي الفتيات ترافقه حتي يهدأ، مرّ مينا بأسوأ من ذلك من قبل وستمر أنت أيضا فيما بعد .. أنت هنا مصري لا أكثر، أعرف حجمك.

فرجعت إلي الصالة زائغ البصر تائه العقل ذاهل الفكر، أتخطي النضد واحدة تلو أخري دون الشعور بهم، يسيطر عليّ همّ كبير، كنت أظن ـ عندما دخلت هنا صباحا ـ أنني سأدفنه هنا بين زجاجات الخمر وأفخاذ النساء.

جذبني العجوز من يدي فجذبتها منه بشدة، ودرت دورة لا واعية بالصالة وخرجت متجها نحو غرفة بآخر الردهة دلتني عليها ماري إذا أردت الإسترخاء قليلا وقت العمل.

مررت على دانيال فلم يناديني، ورأيت ليلي على باب الغرفة الحمراء المفتوح بابها تدخل ثديها داخل فستانها واحدة بعد أخري وخلفها الضابط يضبط موضع نياشينه بالمرآة ...

دخلت الغرفة واستلقيت على ظهري في ظلامها، وبعد دقائق فتح أحدهم الباب ثم أغلقه وأضيئت الأنوار، كانت ماري التي قالت ضاحكة وهي تتجرد من ملابسها كلها:

ـــ أمنياتي سريعة التحقق.

واستلقت بجواري.

١٤

قمت من نومي عصرا ثقيل الرأس متورم العينين ..

لم تكن ماري بجواري، فقمت أرتدي ملابسي، تفاجأت بحقيبة بنّية بجوار دولاب الغرفة فوضعتها على السرير وفتحتها .. كانت الملابس التى أُحضرت لي وأنا في قصر عنايات مندور، فابتسمت ساخرا وتابعت ارتداء ملابسي، دخلت امرأة من العاملات بالباخرة (زميلة) دون استئذان فحيتني وقالت:

ــ أحضر لك الإفطار؟

استغربت، فنحن موظفون معا!

فتابعت قائلة:

ــ بعضنا هنا لخدمة موظفو الصالة لأهميتهم (ثم بلهجة ذات مغزي) بما فينا ماري،

فابتسمت بشفتين يابستين من القرف ..

ــ اسمي تيجوانا.

ــ قهوة .. قهوة سادة.

ــ والطعام؟

ــ قهوة فقط.

ابتسمت وخرجت، ففتحت نافذة الغرفة المطلة على النيل، فأشعلت سيجارة وشردت فيما حدث ..

تأخرت الفتاة قليلا، ثم جاءت بعدما أشعلت ثلاثة سجائر تدُّب خشب الأرضية بكعبها العالي في مشية متكسرة ونظرات وإماءات مبتذلة، مع فتحة صدر مفتعلة، فوضعت القهوة على التسريحة وانتَظَرت شيئا يقال، فحولت نظري من الخارج إليها قائلا في جمود:

ــ شكرا.

خرجت وأغلقت الباب خلفها بعنف لغضبها، فأخذت الفنجان وعدت إلي النافذة أرتشف قهوتي بتأني.

لم تخل صفحة النيل من اليخوت المبهجة ذات الألوان الزاهية مختلفة الأعلام والأشكال، حضرت بذهني صورة المرأة المصرية القديمة وزوجها المسن وحفيدهما الصغير وهم يسرحون في النيل في محافظات الجنوب.

لم يبق لنا إلا الذكريات تعذبنا وتؤلمنا إذا هبّت على القلب رياح الشوق لوطننا الذي كنّا نعرفه، وطننا التائه المشرد الذي لا يعرف نفسه ولا تاريخه ولا قدره ولا ما يملك، لم أعد الآن مبهورا بأمريكا كغيري، أعرف أنها الدولة الفريدة في العالم، لكنها كرجل نرجسي عليه حُلة مزركشة تأخذ العيون وتفغر الأفواه، فبدولابي ملابس أرقي منها وأنقي .. لكنها محرمة علي ارتداءها.

وللحقيقة فقد كنت مؤمن في قرارة نفسي أن الإدارة الأمريكية ستتمكن من الأنظمة العربية يوما ما، بقدر ما إدارتها قادرة علي الإرغام وتعلق كثير من تلك الأنظمة بأمريكا وبقدر استعداد تلك الأنظمة للخضوع، فقد كانت التبعية لا

تشغل الأنظمة العربية في شئ، إضافة إلي أنها توفي لأمريكا بسداد فواتير السيطرة والهيمنة ولا يشغلها مشروع حيوي حياتي أو قومي، فكل شغلها منصبّ علي توكيد سطوتها ورسوخ حكمها وضرب أية قوي جماهيرية تحاول التغيير والفرار من أصابع أمريكا الخمس التي تسيطر وتصفع في الوقت ذاته. بل يمتد الأمر أحيانا إلي تصويب البنادق للصدور الرافضة إذا زادت عن الحد الآمن.

أخرجت بذلة أنيقة من الحقيبة فارتديتها وخرجت إلي سطح الباخرة، يختلف السطح عن الصالة، فأغلب العمل عليه نهارا، هادئ قليل الصخب والضوضاء الليلة، تُقَدَّم فيه المشروبات الساخنة كالشاي والقهوة فقط، أما الخمور فعليها حرج في السطح مخافة أن يسكر أحدهم فيقع في النيل.

جلست على منضدة بجوار سور الباخرة وأسندت ذراعي عليه، وأخرجت سجائري وأشعلت واحدة.

طرأ ذهني منظر ليلي وهي مع الضابط على باب الغرفة الحمراء، لم يكن الضابط الوحيد من ذهبت معه إلي الغرفة في الليلة الماضية .. يبدو أن هذا هو عملها التى ضحكت ولم تخبرني به لمّا سألتها.

وضعت ماري صينية بها شاي وبعض (السندويتشات) فانتبهت لها

ــ نمت كثيرا.

ــ كانت الليلة ثقيلة بما فيه الكفاية.

ــ لأنها أول ليلة، ستتعود مع الوقت.

أشعر أنني هنا منذ قرن، المكان يجثم على قلبي بشدة

ــ رأيت مينا؟

ــ من مينا؟ الموظفون والعاملون هنا يزيدون عن المائتين.

ــ الشاب الذي حدثت معه مشكلة الأمس بالصالة.

ــ آه .. الشاب الذي لعق صلعة العجوز ..

وأطلقت ضحكة عالية ساخرة من موقف أمس فاحتقرتها في نفسي، ثم أردفت:

ــ لا لم أره اليوم، بالتأكيد سيأتي في موعده ليلا.

تناولت طعامي بعدما انصرفت، وصببت كوب شاي وأشعلت سيجارة، ثم جاءت أخري فرفعت الأطباق من أمامي ..

في بداية النضد على الجهة اليمني في الأمام سحب كرسي ليجلس عليه، فلمّا لمحني تركه، وسار نحوي ثقيل القدمين من سمنته وكرشه الكبير حتي جلس أمامي.

اعتدلت في جلستي ورحبت به، كم أشتاق لقرع صلعتك بالنعال أيها العجوز المقرف

ــ لا تتصنع الدهشة، فأنا مهما شربت فلا أسكر، وإن سكرت فلا أغيب عن الوعي إلا بإرادتي.

ــ أتذكرك سيدي أهلا بحضرتك.

ــ أين صديقك؟

ثم ضحك بصوت مرتفع وهو يخرج سيجار من جيبه الداخلي للبذلة وقضمها بأسنانه، وأخذ ولاعتي فأشعلها، ونظر في المنضدة بحثا عن مطفأة فلم يجد، فرمي بما قضمه منها في النيل

ــ وما النيل إلا مطفأة كبيرة.

وضحك، فنافقته ضاحكا، وانتظرت حديثه ليوضح سبب جلوسه معي وما يريد

ــ أنتظر صديقا لي على وصول.

بلغ بي الضيق والقرف مبلغه من الرجل، ولا أجد كلمات أشغل بها فراغا سمجا بيننا.

أدخل يده في جيبه وأخرج رزمة دولارات ووضعها أمامي، فنظرت له مستفهما

ــ كان ما حدث بالأمس مسليا جدا، كان منظركما مضحكا للغاية، كثير من الأصدقاء أعجبهم ما فعلت، أسعدتني تعليقاتهم.

وضحك وتابع قائلا:

ــ هذه لكما على ما قدمتما من عرض.

فقلت مغضبا:

ــ خذ نقودك، ولا تحاول الحديث معنا بعد الآن.

فقال الرجل ببرود:

ـــ تعرف بالأمس كنت سأقتلكما بالفعل، لكن فكرت أن أجعل من هذا الموقف مزحة تسعدني وتغير من أجواء الموسيقي الصاخبة بعض الشئ، فأنا أفتقد الضحك دائما.

كان واثقا مما يقول لا يكذب ولا يهدد، فابتسمت وقلت:

ـــ معك نقود مصرية؟

ارتفع حاجبي الرجل وانفرد فمه ثم أطلق ضحكة عالية، فضحكت ـ متصنعا ـ لضحكته

ـــ معي جنيه مصري قديم أحتفظ به ، أشتراه أبي فيما مضي بخمسة آلاف دولار من المزاد العالمي الذي بيعت فيه مقتنيات مصر وتحفها، هذه صورة منه أما الأصل ففي مكتبي.

تجرعت الصدمة ولم أعلق على "مزاد عالمي"، وتابعت كلامي وكأنني أعرف تاريخ حقبة الإنهيار وما تبعها حتي الآن، فسألته:

ـــ أكانت أمريكا الأولي بنصيب الأسد في مصر

أخذ الرجل يتحدث بزهو المثقف العارف ببواطن الأمور، فاستند بمرفقه على ساعد الكرسي وأشار لي بالسيجار الغليظ وهو يخبرني أن أي دولة مهما كانت كبيرة يمكن السيطرة عليها من خلال تغيير ثقافتها وهويتها، ولن تتمكن من ذلك إلا إذا لعبت بتاريخها وبدّلته، وجعلته في عقول أبناء هذا البلد أرجوزا يدعو للسخرية، ولن تستطيع فعل ذلك إلا إذا استطعت الإمساك بزمام اقتصادها. صحيح أن بعض الإستراتيجيات كانت تؤمن أن ثقافة الشعوب

وعاداتها وتقاليدها وأديانها أقوي، لكن ذلك لم يعد واضحا علي طاولة الإقتصاد واستجابة الشعوب لا إراديا للقمة العيش.

وهنا كان دور الشركات المتعددة الجنسيات وعلى رأسها الشركات الأمريكية، لم يستوعب صناع القرار المصري خطورة تلك الشركات، بل راح ببلاهة وسذاجة يوفر لها الدعم، ويرفع عنها الضرائب، ويسمح لها بتحويل أرباحها للخارج دون انفاق حتي ولو جزء بسيط منها يعود على البلد الذي تستثمر فيه، ولا حتي تنقل هذه الشركات مهارات التصنيع والإنتاج للمصريين!.

هذه الشركات استطاعت عبر تاريخها اسقاط أنظمة لا تحصي.

ثم ضحك الرجل ضحكة صفراء باهتة حانقة وهو يفرق كلتا يديه، وأشاح بوجهه تجاه النيل، فسألته:

ــ أنت مصري؟

ــ للأسف تمتد جذوري لرجل مصري، قرأت مذكراته، كان يهوي زيارة الأهرامات والمعابد الأثرية ويلتقط الصور التذكارية بجوارها ويفخر بأنه فرعوني يمتد نسبه في التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام.

رفع عينيه وحدّق في لبرهة ثم سألني ضاحكا وأنا أشعل سيجارتي:

ــ أتذكر هذا التاريخ ..؟

فسكت، وتبعت تدخين سيجارتي، فلم يكن ذلك "تاريخ"، بل ذكريات لأناس مرّوا بهذا المكان وعلّمت آثارهم فيه، وجاء من بعدهم أجيال متوالية استفادت

من آثارهم وتسوّلت بها أمام الأمم الأخري دون تقديم أو تطوير شئ آخر مفيد ..

وضع الرجل صورة الجنيه المصري القديم وفردها أمامي، ثم سحب ورقة دولار من الرزمة ووضعهما بجوار بعضهما متساويين، الجنيه تجاهه والدولار تجاهي، فأدرتهما حتي جعلت الجنيه من جهتي، فنظر إلي في تحدي

ــ تخيل لو تكلم الجنيه ووجه حديثه للدولار ماذا سيقول؟.

ــ سيقول: أنا لست مجرد عملة ورقية، أنا جينات تسري في المصريين مهما اختلفوا وتوالت عليهم الأيام فغيرتهم، أضعفني فقري لكنه لم يهزمني، ويوما ما سأعتق كرامتي من أسرك!

فضحك الرجل وسخر وقال:

ــ لا .. سيقول: إذا اغتنيت سأشتري سيدا أقوي.

حضر صديقه المنتظر، كان عنايات مندور فسلّم عليه وقال لي:

ــ أين رأيتك من قبل؟

ــ أنا أعمل بالصالة ليلا.

هزّ رأسه وتأبّط الرجل العجوز، وجلسا على منضدة قريبة مني.

مالت الشمس نحو المغيب فوضعت النقود في جيبي ونزلت إلي غرفتي أستبدل ملابسي، فاغتسلت وحلقت ذقني وارتديت ملابس الصالة، قابلني دانيال في الردهة فنظر إلي معجبا:

ـــ جميل.

ـــ شكرا دانيال.

ـــ من حق ليلي أن تتحرش بك.

وضحك، فاندهشت لقوله كيف أخبرته!

ـــ كانت سكرانة لا تدري ما تفعل.

ـــ هي دائما سكرانة، تتسوّل على كل الموائد كما رأيت .. فأنت أولي.

وتركني وذهب ليبدل ملابسه هو الآخر، لم يجد غضاضة في التحدث إلي بهذا التبجح بأسلوب ضاحك على أنه أمر طبيعي وحديث لا خجل منه، صحيح أن ليلي كما ذكر لكن أنا بالذات لا يمكنني أن أعاملها معاملة الغرباء.

في بداية الردهة عند باب الباخرة دخل عمّال يحملون صناديق الخمور الفاخرة، يتقدمهم أبراهام أمين مخزن الخمور الذي كان يحمل زجاجتين في يده، فناولني واحدة وهو مارّا بي قائلا:

ـــ مساءك سعيد أيها الشاب.

نادتني ماري الواقفة في شباك يطل على الردهة الذي تخرج منه الخمور لموظفو الصالة، فدخلت أحمل الزجاجة في يدي وجلست ووضعتها على منضدة أمامي لأخرج سيجارة، فأخذتها وهي تقول:

ـــ إنها ساخنة سأحضر لك بدلا منها واحدة مثلجة.

ووضعتها في ثلاجة، وأحضرت غيرها من ثلاجة أخر مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: فاسدة.

لاحظت تعلق عيني بالثلاجة وبالكلمة المكتوبة، فقالت:

ــ إنها ليست فاسدة، لكن الخمور التى يمر عليها شهر ولم تخرج تعزل بمفردها وتباع.

ــ لمن؟

ــ للمصريين في المستعمرات.

تجاهلت حديثها وسألت:

ــ هل حضر مينا؟

ــ حتما سيحضر فكثير من الصلعاء بانتظاره.

ثم ضحكت، فخرجت أحمل الزجاجة الفاسدة بما إنني مصري من المستعمرات، وفتحتها ورشفت منها عدة رشفات حتي دخلت الصالة، فرآني دانيال الذي كان يتفقد النضد مع الموظفين فغضب لشربي الخمر قبل العمل، وأخذها من يدي وأعطاها لأحد الموظفين الذي ألقاها في سلة المهملات.

ــ لا يجوز شرب الخمر قبل العمل، لا تكررها مرة أخري.

ومع توغل الليل غصت الصالة بروادها، وتناثر الموظفون في أرجائها، تم توظيفي من قبل دانيال في إحضار الخمور من عند ماري وصديقاتها إلي النضد.

وسار العمل بشكل حسن لم يقع فيه غلطة من أحدنا، بحثت بعيني عن مينا فلم أجده، فسألت دانيال عنه فقال:

ــ كان لابد أن يخلو المكان من أحدكما أيها الصديقين، لكنه اختصر الطريق واستقال.

ــ استقال!

ــ وخزته (كرامته).

ثم ضحك ساخرا وقال:

ــ مساكين أنتم، لازلتم تحتفظون بكلمات في قاموسكم تؤلمكم على الدوام، لا أنتم استطعتم نقلها من القاموس (الفلسفي) الخاص بكم للواقع، ولا حذفتموها فاسترحتم.

أنا السبب .. أنا السبب.

انشغلت في العمل وأغرقت ذهني فيه حتي أتلهي عن كل شئ حولي، كانت الصالة تسير بشكل منتظم، روادها في غاية السعادة، والراقصة على المسرح بزيّها الشرقي تتمايل وتتثني، حضرت ليلي وجلست على منضدة بمفردها فأشار لي دانيال بالتقدم نحوها لأسألها إن كانت تريد شيئا، فجعلت آخر يذهب إليها فابتسم دانيال ساخرا.

ووقف على حواف الصالة مع أصدقائي ريثما يطلبنا أحد.

انتهت الراقصة من عرضها وساد المسرح فترة سكون تبادل فيه الجلوس فرقعات الكئوس والضحكات العالية، ورأيت ليلي تحتسي كأسا مع شابين أحدهما أمريكي والآخر إسرائيلي، فبزّات الجنود لا تخلو من علم يدل على جهتها، ثم قامت معهما نحو الغرفة الحمراء ومرّوا من أمامي، فدققت النظر في العلم على بزّة الإسرائيلي فرأيته نجمة سداسية أضيفت له أفعى تطوّقه!

أصغيت سمعي لرجلين لا أعرف جنسيتهما، كانا يتحدثان عن مصر القديمة، ليست القديمة الفرعونية ولكن القديمة التى أتيت منها قبل بضع وستون عاما.

ــ كنّا نراقب دائما ما يحدث في مصر، كانت بلادي تتوقع أن هذا سيحدث قريبا لذا ساهمنا فيه لنحجز مكاننا.

ــ كيف ؟ كنتم تنفقون عليها ليل نهار وتغذونها في مرضها في الوقت الذي كانت بلادي تحيك لها الفخوخ حتي ننتهي من جهلها (ثم تنهد) كانت ترقد على كل مقومات الدولة الحديثة لكنها كانت جاهلة شديدة الجهل.

فضحك الرجل ضحكة خفيفة وهو يقطع قطعة لحم بسكينه، وقال:

ــ الأنظمة لا تموت بالسكتة القلبية

ــ ماذا تقصد؟

ــ لم نكن نغذيها، وهذا ما لم تفهمونه في وقته، فلكي تسيطر على دولة ما ليس بالأمر السهل، وليس في الوقت القصير، حتي التدخل العسكري لم يصبح ذا أهمية كما كان سابقا، فيجب أن تظهر دائما أنك قريب منها وتفتديها من

أزماتها فتفقرها وتجعلها دائما في حاجة إليك، حتي إذا تمكنت من بطنها وعقلها لعبت بها كيفما تحب، وهذا ما كان يفعله البنك الدولي طول الفترة التي سبقت الإنهيار، فقام بفرض سياسة تحرير الإقتصاد حتي يمكننا نحن من التدخل والتحكم في اقتصادها ومن ثمّ نفعل ما نريد، فنتج عن ذلك تقسيم المجتمع إلي فئتين: قلة ثرية جدا بعضهم حولنا هنا في الصالة وبعضهم لم يرض بالوضع الجديد فرحل، وأكثرية فقيرة جدا في المستعمرات تحت قبضتنا.

ضحك صديقه قائلا:

ــ أيها الخبثاء!

ــ لكن هناك خطرا نخشاه على ما نحن فيه.

ــ ما هو؟

ــ المستعمرات .. أخشي خروج المصريين من المستعمرات، لو خرجوا فسيكونون كالسيل الهادر الذي سيجرف حصوننا وقلاعنا هنا.

ــ لا تقلق، سأعرض في جلسة (مجلس أمن الملاك) الأسبوع القادم اقتراح بشأن قصف المستعمرات بالطيران ومحوها عن آخرها.

تدخلت في الحوار دون إرادة:

ــ ستقصفون المستعمرات؟

ــ نعم إنهم وباء منتشر في البلاد ويجب التخلص منهم.

قالها بلهجة حانقة برز خلالها فمه لعيني كفوّهة بركان تلقي حمما ..

فارتميت عليهما سبا ولعنا وضربا وانا أهذي بكلام كـ (يا ولاد الكلب ، يا غرباء ، يا مستعمرون ....).

فانتبهت الصالة إليّ، وقام رجالها ونساؤها ـحتي العاهراتـ بمن فيهم ماري يصوبون نحوي فوّهات مسدساتهم، تتردد منهم كلمات كـ (إنه مصري، إحترسوا، قف مكانك أيها المصري، أرفع يدك أيها الطاعون، استدر للحائط ....).

وجدت نفسي كفأر بمصيدة أتقهقر للخلف رافعا يدي لأعلي بخطوات ثقيلة ثقل الجبال، وعيني تدور بحذر وخوف بين مسدساتهم لا أدري من أيهم تجيئني الطلقة الأولي، وسكتت الموسيقي، وخيّم الصمت على الجميع فما ثمّ صوت مسموع سوي نبضات قلبي المضطربة الخائفة، فجاء دانيال على الفور ..

ــ أرجو أن تعودوا لسمركم، إنه سكران وسألقنه درسا لن ينساه ..

وجذبني من كتفي بعدما أشهر مسدسه في رأسي ومشيت خائفا بين فوّهات المسدسات التي تحدق بي، ضربني دانيال عدة ضربات قاسية عنيفة على رأسي فدميت، ولطمتني عدة سيدات على وجهي، كان الأصلع العجوز وعنايات مندور ممن أشهرا مسدساتهم فقال عنايات:

ــ إن خرج المصري من هنا حي فسيجرئ علينا جرذان المستعمرات.

ثم أطلقا النار علينا، وتبعهم في ذلك كل مسدس، فتلقي دانيال كل الرصاص في ظهره فلقي مصرعه، فجريت بكل ما استطعت من قوة، كان الباب من جهة اليسار والذي يؤدي للشارع مغلقا، فاتجهت يمينا باتجاه الغرفة الحمراء فدفعت بابها الموصد فكسرته، كانت ليلي عارية تماما تتمدد بين الرجلين كقطعة اللحم

في (السندويتش) أحدهما أعلاها والآخر أسفالها، فقفزت من الشباك في النيل، فتبعتني رصاصات متعددة أصابت أحدها كتفي.

سبحت كثيرا وأنا أجاهد ألم الرصاصة وأدفع الإغماء بكل قوتي حتي لا أفقد الوعي وأموت غرقا حتي وصلت إلي مكان ما على ضفة النيل، تبيّن لي بعد ذلك أنه نفس المكان الذي كنت فيه من قبل يوم هددني الرجل أسفل الشجرة بمسدسه ..

انفصلت عن الوعي، آخر ما أذكره أنني رأيت ـ ووجهي على التراب ـ امرأة وشاب يتجهون نحو جذع الشجرة يضحكان، ثم أُسدل ستار أسود على عيني ..

ولمّا أفقت وجدت نفسي في غرفة من الخشب لها نوافذ متعددة مفتوحة، تبرز خلالها أسنمة القبور.

دخل رجل مسن يرتدي ثوبا أسودا طويل اللحية كثيف الحاجبين ..

ــ حمدا لله على سلامتك.

ــ الله يسلمك.

حدّق النظر في، ثم قال بجديّة:

ــ هل أنت أحد الغرباء؟

ــ لا .. مصري لعين هارب من المستعمرات.

فابتسم الرجل وقال:

ـــ كدت أن تموت، فالجرح تلوث بماء النيل السام لكن الله سلم.

ـــ الحمد لله.

ـــ أنت هنا في منطقة قبور كما تري، أرجو ألا يزعجك هدوئهم.

ـــ ليتني مكانهم.

أغمض الرجل عينيه بأسي، وتنهّد قائلا: لا تقوم الساعة حتي يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه، ثم ابتسم بوجه بائس وقال:

ـــ نحن بالفعل مكانهم، فلا فرق بيننا وبينهم ..

وابتسم ساخرا وسكت، وأشغل يده في عمل طعام بسيط من الجبن والخيار

ـــ الخيار أزرعه هنا .. في القبور، خيار بطعم الموت، فجذوره ممتدة إلي عظام الموتي.

وعلت ضحكته الساخرة، فقلت بغضب:

ـــ من أنا؟

فقال دون أن يلتفت:

ـــ الطبيعي أن تسألني من أنت وتشكرني على ما فعلته بك

ـــ أظن أنني أعرفك، فأمثالك هنا كثير، تعيشون أو تحاولون العيش بانسجام مع واقعكم، لكن من أنا؟

توقفت يد الرجل عن تقطيع الخيار، وأغمض عينيه وعصرهما محاولا استبعاد ذكري ما عن خياله ..

ــ كل شئ غريب هنا، لكنني إلي الآن لم أستطع الذوبان في غربتكم، وعجزت عن أكون أحد مكوناتها ..

ــ يبدو أن الرصاصة أصابتك بحمي ..

فقلت بغضب:

ــ أنا لا أهلوس ..

فقال بلهجة الواعظ الصادق الحاني:

ــ يجب أن تنسي ما تود تذكره، مرّ بي العديد من المصريين مثلك، كانوا مصابين بمرض (استعادة الذاكرة)، انتهي أغلبهم إلي الموت على أيدي الغرباء أو الإنتحار في النيل.

ثم قدّم لي الطعام وخرج يحضر بعض الماء للشرب، وقبل أن أنتهي من طعامي دخل يحمل زجاجة مياه، فسمعنا صوت طيران حربي بدا خافتا فسألته عنه.

ــ لا تقلق، فالمستعمرة هنا آمنة ليس بها أحد غير المصريين الموتي.

فترددت كلمة (المستعمرة) في أذني مع صوت الطيران، وتذكرت قول الرجل عن نسف المستعمرات بالطيران فخرجت هاربا وأنا أحذره في هلع:

ــ سيقصفون القبور، أهرب .. أخرج من هنا ..

ـــ أهدأ لن يفعلوا إنه تحليق من أجل الترهيب وبسط السيطرة فقط.

لكنني جريت بعيدا، وقبل أن أخرج من حيز القبور قُصفت القبور بالطائرات، فنظرت خلفي فرأيت غرفة الرجل تنسف عن آخرها وهو بداخلها، وتناثرت عظام الموتي في طريقي وأنا أهرب، فلم تبق مقبرة إلا وموتاها فوق سطح الأرض.

تمزقت ثيابي بعض الشئ ، ونالني من وهج المتفجرات لفحات في وجهي وكتفي وظهري، وسرت على غير هدى، لا أدري إلي أين.

١٥

صاحبة الجلالة في مخدع السلطان
في ليلة هادئة من ليالي الربيع الساحر
ليلة عليلة النسيم، عبقة العطر، خافتة الإضاءة، موطأة الفراش ...
ذهبت إلي مخدعه بإرادتها ثم زعمت أنها مرغمة، ذلك لأنها تستمتع أكثر بالاغتصاب.

خرجت الصحف في يومها التالي متشابهة (المانشيتات) تقول أن التفجير الذي حدث كان عن غير قصد، وأن الطائرات الحربية التى قصفت القبور حدث بها عطل أدي لانطلاق الصواريخ تلقائيا ولم يسفر عن قتلي، ولم يمتد القصف إلي غيرها من المستعمرات.

القبور بها العديد من الغرف الخشبية وممتلئة بالمصريين ماتوا حرقا!

لكن لا قتلي؟

أحسست بمدي البشاعة التى كان يشعر بها المواطن جراء تدليسنا عليه وقتما كنت صحفي مرموق الجانب.

آه .. هل ما أراه من الدنيا أم وجود مختلف لا هو من الدنيا ولا هو من الآخرة!
ضمرت في نفسي كل ذكري جميلة للحياة، وجفّ في حلقي حلوها ..
يفرز قلبي الآن عصارات سوداء من همه وغمه.

أريد أن أتعلم كل شئ من جديد، كيف أضحك، وما الأشياء المضحكة، كيف أشعر بالجمال وما هي الأشياء الجميلة، كيف أثق فيمن حولي وما هي الثقة، كيف أفكر كيف أتكلم كيف أكره كيف أنافق كيف العن ضميري وأقتله وأدفنه في مقابر السلوك الإنساني العفن.

لا أرجو أن تطول بي الحياة، إنني أشعر الآن أنني سجين هذا الجسد علي أعمدة من العظم تحبسني، وعليه كومة من اللحم أطبقت علي فمنعت عني النور والتنفس.

فقد الوجود معناه، وأُفرغ من حكمته، واختل في نفسي ...
كيف يحزن الناس لموت أحدهم، فيصرخون ويبكون، فماذا يفعل من مات الوجود كله في نفسه وبقي وحيدا، ولا أحد يبكيه أو يعزيه أو يدمع عليه دمعة واحدة.

مزّقت الجريدة ورميت بها في بئر السلم، وأكملت صعودي نحو مينا لأطمئن عليه وأعتذر له، لم أجده هناك، كانت الشقة محترقة بما فيها، فدخلتها، كل شئ متفحم، يبدو أن المطافئ لم تتدخل، وأعطت الفرصة للنار كي تأكل شقة رجل مصري بهدوء، لكن أغلب ظنّي أن مينا لا يزال حي، ارتاح قلبي لذلك الإحساس، وقبل أن أترك المكان تناهي إلي أذني صوت منبعث من الغرفة الخشبية، كانوا يتناقشون في شكل الحكم وكيفية الإدارة في الفترة المقبلة، لكن الأعلي صوتا كان سعيد مسرور!.

فأغلقت عليهم الباب من الخارج بالقفل، وأحضرت من جانب السطح علبة بنزين فأفرغتها كلها على أخشاب الغرفة وأشعلت فيها النار وذهبت، لم يحرك في صريخهم شئ!.

أكملت سيري العابث حتي وصلت إلى منطقة على أطراف القاهرة مع غروب الشمس، محاطة بسور غليظ مرتفع ممتد يقوضها عن غيرها، وعليها لافتة مكتوب عليها "المستعمرة ١٠١"!، أعلي السور الحجري سور آخر حديدي مدبب، له بوابة حديدية كبيرة بداخلها باب صغير يقف عليه حارس ببندقية، وبجواره مضرعة ذات رشاش فتاك، قبل أن أصل إلي الباب نزل الجندي عن مضرعته ونادي صديقه فجلسا معا يتسامران، فدخلت دون أن ينتبها لي.

ها أنا الآن في المستعمرة ..!.

كانت كأسوأ ما كانت عليه الدويقة ومنشأة ناصر قبل عصر النوم.

كيف لم تطل يد التطوير هذه المناطق وظلت كما هي، أم أن ما بالقاهرة مجرد ديكور للسادة الأجانب وأن العشوائيات ظلت كما هي لم يطمع فيها أحد، وكأنه كتب عليها الإهمال إلي يوم القيامة!.

توالت الحكومات وكثرت العهود لتطوير أمثال هذه المناطق، لكن ما أكذب الحكومات! فلو صدق الكذب ما صدقت الحكومات في وعودها ..

فكم من قتيل ومصاب بعاهات مستدامة في تلك المناطق بسبب الإهمال وكذب الحكومات التي لا يُري رجالها إلا في مكاتبهم أثناء اللقاءات الصحفية، أو في المواكب الفخمة.

ذات مرة سألت وزير الإسكان: متى تخلو الشوارع من المصريين المشردين بلا مأوى فيضمهم سقف بيت وليس سقف كوبري؟

فقال هازئا: متى؟ هه .. أنا وزير إسكان ولست أستاذ تاريخ.

أشعر أنني الآن داخل متاهة أو داخل لعبة، وعليّ أن أبحث عن الباب الذي أخرج منه دونما معين أو مساعدة، ولكن ترى أين هذا الباب؟.

تنامى اليأس بداخلي أكثر من أي وقت مضى، فانتهيت إلي مقهى وارتميت على إحدى مقاعده البالية، فازدراني رواده لهيئتي الرثة .. يا للسخرية، فأتاني النادل فطلبت لاهثا كوب ماء فأحضره بعد ساعة أو ساعتين لا أذكر، ثم عرض عليّ أفضل ما عنده من مشروبات واحدا تلو الآخر وأنا أرفض، فسألني إذا كان دولارات، فأجبت بأنني مفلس، فنادى ـ من تلقاء نفسه ـ داخل المقهى طالبا لي شاي، على أية حال شكرا لعطفه الجم.

تقلب نظري في الجلوس حيث البؤس والشقاء لم يجد أسوأ من نفوسهم ليسكنها، تنطق وجوههم بالمرض وعروقهم البارزة بالجوع وشفاههم اليابسة بالظمأ إلي الحياة.

كانت بينهم بعض الضحكات اليابسة والنكات المؤلمة من حالهم البائس، حتى بعد كل ذلك وكل ما حدث ويحدث لكم أيها المصريين لازلتم تضحكون! من أي طينة إلهية صيغت نفوسكم التي تقتل عدوكم بشفاهكم المبتسمة، وتضج مضجع جلاديكم بضحكة في ظلمة الليل القاسي الأليم!

لكن بعد كل ما رأيت ... فضحكاتكم بلهاء، تضحكون للفقر والجوع والمرض والتهميش كما تضحكون للسعادة والفرح والراحة!.

شقّت الأجواء صرخة أنثوية مفجعة تستغيث، انتبهنا جميعا لمصدرها فبزغت لنا امرأة ترفل في ثوب قصير ممزق يشبه قميص نوم نجا بمعجزة من ليلة حمراء قادها فيها محروم شبق، تلهج كأن عدوا يقفو أثرها، فقاموا جميعا ـ إلا أنا ـ يسألونها عمّا حدث، فأخبرتهم أن حرّاس المستعمرة أمسكوا بزوجها لخروجه خلسة منهم وهم الآن ينكلون به.

فهرعوا إليه ينقذونه من أيديهم فقابلوه دامي الوجه خائر القوة يتهادى بين رجلين من سكان المنطقة، فحملوه عنهما وأتوا به إلي المقهى ..

ــ كم أنذرناك من التسلل خارج المستعمرة ولكنك لا تستمع لنصحنا حتى أشرفت على الموت.

ــ أنت أغبى مصري في مستعمرة المصريين هنا، أنسيت كم من صديق لك قتل على أيديهم لتسلله، ولكنك لا تتعظ.

ــ أخبروه إن كان لا يعلم ما حدث لصفوان أخوه يوم قتلوه بالرصاص على سور المستعمرة واشمأزوا من إنزال جثته ومنعونا كذلك من إنزالها ودفنه حتي نهشته الصقور والغربان.

تابعت حديث جيرانه وأصدقائه باستغراب شديد، وأفرغ النادل على وجهه كوب ماء كبير فغسل عنه الدم، فجذبته جذبا شديدا حتى جلس على الكرسي المقابل لي، فقال مرتابا:

ــ ماذا تريد؟

ــ ماذا يحدث هنا وما شأن المستعمرة والحرّاس وغيره مما سمعت؟

اندهش النادل وارتاب أكثر، وهمّ بالقيام لولا أن رأى في عيني حمرة الغضب وشرره، فقال بصوت متحشرج

ــ ألست مصريا؟.

ــ مصري.

ــ إذن كيف تسأل هذه الأسئلة، إن مظهرك يدل على أنك من سكان إحدى المستعمرات وتعرف حقيقة واقعنا!.

كان الرجل صادقا، فهيئتي الرثة وجلدي المتسخ وشعري الهائش على جانبي رأسي يدل على أنني من سكان الجحيم وليس المستعمرات.

ــ لربما فقدت الذاكرة يا أخي فأخبرني بما يحدث حتى أتفادى أي سوء.

ــ نحن المصريون منذ زمن بعيد مقسمون إلي أقسام، لكل قسم له هيئته وخصوصيته وملبسه ومكانته في المجتمع، فطبقة رجال الأعمال والسلطة هم الطبقة الأولى وهم قريبون إلي حد ما مع الغرباء وكأنهم منهم، ثم طبقة السياسيين الذين يتحدثون باسم الشعب المريض الجائع وهؤلاء هم (الخصيان) هكذا نسميهم؛ لأنهم الخدم المخلصون للطبقتين ومنهم يأكلون ويشربون. ثم طبقات أخري كثيرة تقترب وتبتعد وفقا لثمن مبادئها، وأخيرا أنا وأنت وهؤلاء، النسبة الأكبر في المجتمع .. سكان المستعمرات، مصريون بدرجة وباء لأننا فقراء أو مرضى أو جوعى، وما ثمّ سبب فيما وصلنا إليه غيرهم، ولأننا مستضعفون لا نملك مالا كمالهم، أو لسانا متمرسا على النفاق كلسانهم، أَوْدَعُونَا مستعمرات كهذه حتى يُنهي علينا المرض والجوع فيتخلصون منا دون عناء أو مجهود،

وأحاطونا بحرّاس من مختلف الجنسيات حتي لا يتفلّت أحد من المستعمرات إلي مجتمعهم الراقي.

ــ لكنني رأيت بعض المصريين خارج المستعمرات يخالطون (الغرباء) كما تسميهم دون إساءة.

سألني وعينه تنكرني:

ــ ألست من سكان المستعمرات، فكيف رأيتهم بالخارج؟

ــ لم أقل رأيتهم ولكنني أسأل فحسب، ألا يوجد مصريون بالخارج يخالطون الغرباء؟.

أجاب الرجل مهموما كأنما ينعي حظه:

ــ نعم هناك مصريون يخالطونهم، وهؤلاء تم انتقائهم من قبل الغرباء ليخدمونهم (ضحك ساخرا وتابع) انتخبوا انتخابا طبيعيا حتى يتسنى لهم نيل شرف خدمة الأسياد الغرباء كما نالها أسيادنا في السلطة.

وقام قائلا:

ــ سأشغل الراديو ربما أعثر على محطة عربية تنفس عنّا بعض أوجاعنا.

كان الرجل المتسلل قد بدت ملامحه بعد غسل دمه، شابا صبوح الوجه دون الثلاثين من عمره، تلمع عينيه بالذكاء والطموح والحزن وقلة الحيلة في مجتمعه أو الذي كان مجتمعه!

سمع هذا الشاب ما فيه الكفاية من التأنيب والتغليظ لما فعل، وكانت أكثر الكلمات ترديدا كأنها آية من كلمات الله المقدسة: من خاف سلم.

استكان الشاب لعُرف الخوف المقدس ووعدهم صادقا أن لن يعبث بحياته مرة أخرى وسيسير بجوار الحائط، وقام مستندا على كتف زوجته وكفه يستر إحدى ثدييها البارزة ورحل.

أدار النادل بكرة الراديو داخل المقهى فمر على محطات أجنبية عديدة ما بين إنجليزية وفرنسية وإيطالية وروسية، عرفت ذلك من لكنة اللغة لأي الدول تنتمي المحطات.

أخذ وقتا أرهقه حتى نطقت إحدى المحطات باللغة العربية

قال أحد الجلوس منتشيا:

ـــ سيدي يا سيدي.

وضع النادل أمامي كوب شاي آخر دون أن أطلب فحاولت أن أذكره بأنني مفلس، فبادر قائلا بابتسامة صافية:

ـــ على حسابي.

فابتسمت وحييته ..

وبعد دقائق قليلة صدح الراديو بأوبريت الليلة الكبيرة، فاهتاج الجلوس قائلين: الله.

وقلتها أيضا في نفسي حتى انقطع صوتي بداخلي وأغمضت عيني وأنا أرخي سمعي كأنني مستلق على بساط حريري رقيق علي شاطئ الساحل.

تفاعل معها الجلوس بحنين وشوق كأنهم في غربة، وكان أسعد مقاطعها لهم ما دار من حوار بين العمدة والأراجوز حيث القهقهة المنبعثة من القلب، العابرة لسدود الحزي والألم، لكنه مقطع انتبهت له بشدة، استوقفتني كلماته كأني أسمعها للمرة الأولي في حياتي:

"تمشي كده على طول على طول

لحد ما تلاقي عمارة

تكسر يمين تلقى بتاع فول

دكانته على ناصية حارة

تدخل يمينك وشمالك

شارعين وفي التالت تكسر

على اليمين واخد بالك

وتمشي على طول تتمختر

تفضل كده تمشي وتلف

وتخش من مطرح ما طلعت

ولما تلقي مقلة لب

تعرف بأنك تهت وضعت ... "

لقد أبدعت يا جاهين وأبدعت، فما (الليلة الكبيرة) أوبريت عرائس تحركها الخيوط، بل هي مصر في عصر من العصور امتد عبر الزمن حتى وصلت لما نحن فيه، أردت توصيف خداع الطبقة الحاكمة لعموم الشعب بوصفاتها السحرية مستغلة طيبة الشعب وأمانيه البسيطة، ومع ذلك رحّب الشعب وشكر الطبقة الحاكمة قائلا: دي وصفه سهلة دي وصفة هايلة ...

انفجرت بداخلي ضاحكا ساخرا هازئا، كيف لم أنتبه ـوأنا صحفيـ لتلك المخاطر التي تداهم سفينة الوطن من الداخل والخارج، بل لماذا سكت لّما عرفت، وكيف صادقت المخربين وداهنتهم وتقربت منهم.

في بدايتي الصحفية كنت ملهبا بالحماس، كنت دائما أسمع أن وطننا وطن قوي منيع مستقل حر .. مصر أم الدنيا .. أبناء الفراعنة ، وغير ذلك الكثير من الكلمات والأوصاف الرّنانة ، لكن الواقع كان غير ذلك، فالقادة كانوا أشبه (بشجيع السيما أبو شنب بريما ، أول ما أقول على هب واصرخ لي صرخة السبع يتكهرب ويبقى فرخة).

ولّما حضر الأسد وبرزا لبعضهما سافرين بلا حجاب وحان وقت المبارزة، خار (شجيع السيما) وكأنه كان يصف نفسه أمام الأسد لا حال الأسد أمامه ...

ومع الهزيمة النكراء التي أثبتت كذبه طلب (تشجيع وتصفيق)! وصفق الشعب!.

أحزنني كثيرا سماع (الأوبريت) بعدما استرحت لسماعه في بدايته وسررت له، تمنيت لو أنه ما أذيع.

وبعد ما يقرب من نصف ساعة حضر أحد (المحترمين) إلى المقهى، هكذا كان يناديه رواد المقهى، إنه الأستاذ زغلول عويس المحترم، اتضح لي أنه مندوب سفريات، يقوم بتهجير المصريين إلى العديد من دول العالم لقاء مبالغ يتفق عليها مع من يهجّره، تهافت عليه الجلوس يسألونه عن البلدان التي على قائمته، فلم يرض العديد منهم أن يهاجروا إلى بلدان افريقية كما عرض عليهم، وضحكت في نفسي لّما تذكرت حالة التبرم التي كانت تبدو على سفرائنا حينما كانوا يعرفون أنهم سيعينون ببلدان أفريقية، فكلهم يريدون الذهاب إلي بلاد الثلج، وعلى كل حال فهي نزهة طويلة الأمد للسفير وأسرته على حساب الدولة ولا طائل منها سوى راحة سيادة السفير المبجل الذي ينزل إلي البلد، وأول من يتنكر لهم ويقطع وشائجه بهم هم المصريون.

انقضى وقت المحترم بينهم في الحديث عن بطولاته في حل مشكلات المصريين العاطلين المنكودين من الوضع الحالي في البلاد.

كنت أعرف أن عدد المصريين قد نقص بشدة بسبب المياه الفاسدة في النيل، وحوداث الطرق التي لا تنتهي، وأيضا بسبب الأمراض التي أكلت أجسادهم لعجزهم عن العلاج في الوقت الذي يسافر فيه أعضاء الحكومة من الرجال لإجراء عمليات التجميل على نفقة الدولة بالخارج، وربما المحترم وأمثاله سببا آخر في ذلك.

نظر المحترم إليّ نظرة فاحصة أوجبتها انصرافي عنه بلا اهتمام لوجوده ولما يعرض، فسألني من مكانه إن كنت أريد أن أسافر خارج البلاد، فرددت وأنا أقوم منصرفا:

ــ إنني أريد أن أسافر بالفعل .. ولكن إلى مصر ..

فانفجر المقهى ضحكا وسخرية من المجنون .

١٦

هذه الأيام ليست علي نسق مضى أو مثال ولى، فلا شبيه لها في غور التاريخ ولا جديده، هي كالمرض الجديد الذي يأخذ وقتا يلتفّ فيه العلماء وذوي الأهلية يبحثون في مراجعهم وعلومهم عن شئ يشبهه ليكون خادما في فك طلسمه وحل رموزه والإهتداء إلي حلّه والوصول لعلاجه.

أيام كفترة النقاهة لا هي بالمرض ولا هي بالشفاء، لكنها تمنع صاحبها عن السير في أي الطريقين، فهي فترة تفقدنا تذوق الحياة وطعمها، وتنفي عنّا جمالها وحلوها، وتسكن بما فيها في خيالنا كذكريات قديمة حال الزمن بيننا وبينها.

أيام لا معني لها، تمضي بلا انتباه ولا اهتمام لمرورها في العمر، إذ إنها فاقدة القيمة منعدمة الشأن، لا جديد تحت شمسها وقمرها.

ربما نعاند القدر أحيانا ، فنرسم بالوهم حلما، أو ننسج بالخيال أملا في واقع أفضل أوشك بزوغه وشروق شمسه، لكننا دائما نكتشف ألما دفينا في طريق الرجاء، ثم من جهلنا نستمر في الطريق الحرج مدعين المصابرة والحكمة، وما ذاك إلا دليل العجز والضعف، وما ذاك إلا لأننا نسير في الطريق الخطأ.

قادتني قدماي إلى حارة ضيقة معزولة، كأنها قطعة من أرض العذاب في هيئتها وبناياتها القديمة المتهرئة، وأرضها الهشة من طفح المجاري، وأطفالها المتسولين العراة وشبابها البلطجية، ونسائها المنحرفات، لا شيء فيها يمكن أن يكون حسن أو يوصف بالجمال أو الآدمية، فعبرتها واجفا وجلا أحمل همّ الخروج منها بسلام، وما أوشكت أن أصل إلي نهايتها حتى نادتني فتاة دون العشرين، حسنة

المظهر، جميلة الوجه، تريدني أن أصعد إليها لأساعدها في حمل والدها وأقعده لكبر سنّه فارتبت ووجمت، لكني صعدت على أية حال، فما عساه أن يحدث لي أكثر مما حدث وما أنا فيه، فوجدت أبوها كما قالت، فساعدتها ووضعته على فراشه في غرفته، وأعطته بعض الأدوية الموسعة للشرايين وبعض الفيتامينات المقوية، حتى اطمأننت عليه وقمت واقفا استأذن في الانصراف فأقسم أن أجلس فجلست، كانت الفتاة ترمقني بعينين جميلتين طاب لي النظر إليهما مرارا، ثم تحاشيت النظر خجلا من والدها ومن مكاني ببيتهم.

ــ شكرا جزيلا يا بني، ونأسف لتعبك.

فانحنيت معاتبا:

ــ لا تشكرني فأنت كأبي.

وساد ثلاثتنا صمت لفترة، قامت خلاله الفتاة وانصرفت خارجة ولا أدري لما استبقاني، فقطع علينا هذا الصمت صوت مشاجرة عنيفة شرسة بالشارع سال فيها دم كثير، فقمت لأنزل كي أمنع إراقة المزيد من الدماء ما استطعت، فاستوقفني الرجل بلهفة محذرا وأمسك يدي قائلا بلهجة غاية في التحذير:

ــ قد تقتل يا بني، هذه هي عادة الحارة، القتل والدم فيها شيء غير ذي بال.

فقلت وأنا أنصرف نازعا يدي من يده بلطف:

ــ ليس من المروءة أن أجلس هاهنا وبإمكاني فعل شيء يمنع شرا ولا أحاول فعله.

ونزلت مسرعا، فوجدت شابا عريضا جسيما يحمل (مطواة) يطعن بها شابا أصغر منه في مناطق متفرقة من جسده، حتى ذاب التراب تحت قدميه في دمه، لكنها كانت طعنات دون الموت، فدفعت الشاب عنه بعنف ونزعت ردائي ومزقته ثم لففت به مواطن نزفه وسط دهشة من أهل الحارة لما أصنع، فاتقدت جمرة غضب الشاب المعتدي فتهجم عليّ بسكينه، وأراد أن يطعنني لكنني تفاديتها، وأخبرته أنني لست طرفا في هذا الشجار ولست أريد أن أؤذيه، فتدخل بعض أهل الحارة وأبعدوه، وجاء بعض أقارب الشاب المعتدى عليه فحملوه وذهبوا به إلى المشفى دون عراك، كان الرجل وابنته ينظران إليّ من شرفة البيت، ابتهجا لما صنعت وابتسما ناظرين إلى بعضهما ونادي علي لأصعد فصعدت إليهما، كان الرجل جالسا على كرسي متحرك، وما جلست إلا ورأيت دما يسيل من ذراعي، يبدو أن سكينه قد أصابتني.

فقامت الفتاة بتضميد جرحي ولفّته بجبيرة، وهي تنظر إلي بعينيها الجميلتين بإعجاب لم أر مثله، فانتشيت نفسي لهذه النظرة، فقطع الرجل همس العيون قائلا:

ـــ ما اسمك يا بني؟

ـــ حاتم.

ـــ من أين يا حاتم؟

فسكت، وبدا عليّ عبوسا، ماذا يقصد (بأين) هل المكان الذي ولدت فيه وأتيت منه، أم الزمن الذي قذفني هنا بلا رحمة ولا سابق إنذار؟

فهزّ رأسه ونظر لابنته وسكت لبرهة ثم سأل:

ـــ إلى أين كنت تتجه ؟

أطرقت إلى الأرض ساهما وسكت، وقامت ابنته لتضع بعض الطعام على مائدة صغيرة بجوارنا، ثم قلت وأنا أنظر إلى الأرض:

ـــ لن تسرك إجابتي.

فابتسم الرجل قائلا:

ـــ يبدو أنك منهك من الجوع .. تقدّم.

واتجه الرجل بكرسيه المتحرك إلى مائدة الطعام الذي أعدته ابنته، وأشار بيده أن أقوم فأجلس بجواره، وجلست الفتاة قبالتنا، وأكلنا فكنت أفترس الطعام لشدة ما أتضور جوعا، وجاء بذهني وأنا أرى الفتاة تقدّم لي المزيد من الطعام صورة ليلى وهي تضع طعامي المفضل فابتأست، لاحظ الرجل ذلك على وجهي فأطلق دعابة فضحكنا وانجلت سحابتي الحزينة قليلا، وتابعت تناول طعامي، فجال بخاطري مينا، كيف حاله الآن، وأين هو، وهل أكل أم لا ...

بعد أن فرغنا من طعامنا جلسنا بشرفة البيت المطلة على الحارة الضيقة، أكاد لو مددت يدي إلى الشرفة المقابلة أن آخذ ما بها من متاع بسهولة ...

جاءت الفتاة بشاي ووضعته أمامنا، وانصرفت إلى مائدة الطعام ترفع الأطباق وتنظفها، كان الرجل بين وقت وآخر يمعن النظر في وجهي يتفرسني، ثم قال بلهجة دهشت لها كثيرا وكأنه يعرف شيئا عني:

ـــ أما آن لك أن تتكلم.

فاتسعت عيني بشدة حتى ملأتهما منه، فتابع رشفه للشاي في هدوء وثبات وتركني وحيرتي.

ــ عن أي شيء أتكلم!.

ــ عما تبحث عنه.

ــ هل تعرفني من قبل؟

فتوقفت الفتاة لبرهة عن رفع أطباق الطعام ورمقتنا بنظرة مترقبة، فابتسم دون أن تنفرج شفتاه ولم يرد، فبحثت عن علبة السجائر بجيبي فلم أجدها، فوجدت الفتاة تمد لي يدها بعلبة مغلقة، فأخذتها وأنا ذاهل العقل، فأشعلت واحدة ثم رشفت بضع رشفات من الشاي ونظرت إلى الرجل وفركت وجهي ..

ــ ماذا حدث للإسكندرية؟

تنهد الرجل في أسى ألقى بظلال سوداء على نفسي وسكت برهة، ثم قال:

ــ غرقت!.

كادت روحي أن تزهق، وزاد وجهي من دهشته، وبرزت عيني حتى كادت أن تتهدل على صدري وتجمد الكلام على شفتي، فأردت أن أسأل أو أقول أي شيء، فاهتزت شفتي لكني لم أستطع الكلام وكأنني أبكم غير قادر على النطق، فأردف الرجل قائلا وقد تناول خريطة مصر من جانبه وهو يشير إلي موضع الإسكندرية:

ـــ غرقت الإسكندرية بكاملها بكل ما فيها، الناس والبنايات والحضارات التي كانت عليها، كل شيء غرق، وللأسف لم تذهب الإسكندرية وحدها، بل أخذت معها دمياط والدلتا والبحيرة والعريش وغيره بسبب تغيرات المناخ التي أدت إلي ذوبان الجليد وارتفاع منسوب سطح البحر، وللأسف أيضا فهذه المناطق الغارقة كانت فيما مضي تقع تحت سطح البحر بستة أمتار، لكنها الآن مغمورة بالمياه بكاملها، وكانت هناك مناطق أخرى مرشحة للغرق كالساحل الشمالي وسواحل كفر الشيخ والمعمورة لكن الله سلم، ولكنها في طريقها للغرق لأن الخطر قائم وخارج حدود الغرباء لذلك لم يدافعوا عن تلك الأماكن ...

وطفق الرجل يتحدث ويتلو على سمعي أعاجيب، لو سمعها شهريار في حكايات شهرزاد الليلية لقطع رأسها من أول ليلة لشدّ ما استخفّت بعقله واستغفلته ...

وطافت عيني بتلك الورقة التي يدّعي أنها خريطة مصر فلم أجد الصعيد، فقط كانت تشير إلى عدة محافظات دون العشرة هي كل ما تبقي من أم الدنيا .. مصر!

فقال:

ـــ لقد استقل الصعيد، فبعد أن نجحت يد الغدر في انفصال جنوب السودان عن شماله، تغلب الجنوب ـ بمساعدة أمريكا ـ ليوحد السودان تحت إمرته الكاملة وشتت الشماليين وطمس وجودهم، ثم امتدت يد الغدر إلى جنوب مصر، فبدءوا بحلايب وشلاتين فاستحوذوا عليهما، ثم امتد طموحهم وأحقادهم حتى انفصل الصعيد مكونا دولة على بمفرده تحت مسمي جمهورية الصعيد، وبني علاقات قوية بدولة السودان كانت أقوى من علاقاته بجمهورية مصر ...

كانت هذه الكلمات تنال من الفتاة التي جلست على مقربة منا، فيقع حديث والدها المشئوم في أذنيها فيسري في وجهها الوضاء فيحيله بائسا حزينا، ثم يسري إلى أوصالها فيتركها واهنة ضعيفة، هممت بالقيام إليها لكنه أشار إليّ أن أجلس وأتركها فجلست، ووضع الخريطة جانبا ونظر إليّ وسكت ...

فقلت وأنا أغتصب الكلام من نفسي اغتصابا:

ــ وكيف لي أن أصدق كل هذه المهاترات التي ذكرت؟.

فعكف حاجبيه اندهاشا وقال:

ــ ما رأيته الأيام الماضية لا جدال فيه وإن كنت تنكره، وعلى أية حال فبإمكانك أن تفكر في الذهاب إلي أسوان أو المنيا أو أسيوط مثلا، لكني أنصحك ألا تذهب إلى محطة القطار لتقطع تذكرة وتحجز مقعدا، ولكن بالذهاب إلى سفارة دولة الصعيد للحصول على تأشيرة.

وكررها بمرارة وهو يفرق كفيه بعنف ويرمق الخريطة بحنق وغضب: تأشيرة.

كانت كلماته من الصعب أن تصدق، ليس لأنها كاذبة، فكل الشواهد تؤيدها، لكن ضميري الوطني يأباها ويرفضها، فتضعضعت نفسي وتحسرت، وبدا عليّ الوهن والخور، وتقارب منكبي في خنوع وضعف، ثم أطلقت صرخة ممزوجة بالدمع قائلا وأنا أنظر إلى الخريطة بجواره:

ــ أين آلهة الوطن وقتما كان الخطر يحدق به، لماذا لم يتصدوا له وينقذوا البلاد مما وصلت إليه، لقد عشنا زمنا ونحن نؤلّه نظم ومؤسسات وننظر إليها نظرة تعظيم وإجلال على أنها كلمة السر لسعادة وأمن الوطن والمواطنين، تربينا على أن

مصر أم الدنيا، وأن قضاءنا شامخ فولاذي، وجيشنا خير أجناد الأرض .. آه يا بلد الكلام.

واستلقيت على المقعد وألقيت برأسي على مخدعه الخلفي، ورقّني سكون يشبه الموت، ثم رجعت إلى الدنيا من جديد على صوته ينادي ابنته الواهنة أن تحضر له زجاجة مياه، فتطلعت إليه وهو يشرب حتى وضع الزجاجة عن فمه

ــ كيف حدث ذلك؟

ــ أشياء كثيرة تغيّرت في مصر، تطور فكر المعونات التي نعيش عليها إلي أن أصبحت هي الأصل، فقلّ الإنتاج وقلّ كل شيء .. حتى البشر قلّت هنا.

فارتسمت على وجهي مئات الآلاف من علامات الاستفهام، فأردف قائلا:

ــ راح كثير من الناس ضحايا لحوادث الطرق والمياه الملوثة والهواء الملوث كذلك، وبسبب الهجرة أيضا، وبالزرع المسمم بالنفايات الصناعية والنووية المدفونة بأرضنا.

ــ نفايات نووية؟!

ــ الصحراء بطنها مكتظه بالنفايات النووية والصناعية التي تدفنها الدول الكبرى، وأيضا بعض المناطق الغير حيوية داخل المدن.

ــ ولكن ذلك محرم ومجرّم!

ــ سماسرة الوطن لا يعجزهم شيء، يستطيعون التحايل على أي قانون والإفلات من أية جريمة، ولهم نسبتهم الباهظة فيصيغون القوانين لتحمي الفساد وتنظمه لا لتحاربه وتحاكمه.

على إثر قوله (سماسرة الوطن) تذكرت فجأة سعيد حتحوت وغادة ياسين، وكلام دانيال عن لصوص الزمن وتجاره.

ــ كيف استساغ المسئولون أكل لحم شعبهم باردا بهذا الشكل المروع.

ــ سماسرة الوطن ربهم الدولار وشريعتهم السعي لامتلاكه، فالمسئول الذي يصل للسلطة بالتعيين لا يخدم الشعب، بل يخدم من عينه.

ــ رضيت الدول الكبرى بهذا، دول الديمقراطية وحقوق الإنسان والحفاظ على حياة البشر!

ــ الدول الكبرى ليست كدول الغباء العربي، فما يشغلها سوي تحقيق السيادة ورفاهية شعوبها، لذا فهي متقدمة باقتصادها القوي الذي يخدم هذين الأمرين، وطاقتها الإنتاجية العالية تنتج أيضا مخلفات نووية وغيرها شديدة الضرر بصحة الإنسان، لا تقل نسبة المخلفات عن نسبة الإنتاج، فلو أنتجت مصانعهم سيارة وزنها ألف طن، خلّفت ورائها نفايات خمسمائة طن نفايات، والتخلص من هذه النفايات شديد الكلفة لذا لجأت إلي سماسرة الأوطان كالذين في مصر مثلا لدفن نفاياتهم البالغة أربعمائة مليون طن سنويا من النفايات الصناعية شديدة الخطورة منها ثلاثين ألف طن نفايات نووية.

لم أستطع الرد أو التساؤل، ونظرت شذرا إلى الخريطة فراعني شيئا رأيته، فأمعنت النظر وقمت على فوري وأمسكت بها:

ـــ أين سيناء؟

فسكت الرجل وتنهد بأسى

ـــ هل ظني ... ؟

تذكرت العلم على بزّة الضابط الإسرائيلي وهو محاطا بأفعي، فهزّ الرجل رأسه قائلا:

ـــ نعم.

فقلت مستنكرا:

ـــ نعم؟ كيف؟

ـــ تهاوّنا كثيرا وهان علينا كل شيء، حتى أهلها هناك كانوا أول من هانوا .. مات أكثرهم بسبب السرطان الناتج عن مدافن نفايات مفاعل ديمونة الإسرائيلي في صحراء سيناء، فصارت مطمعا سائغا في حال ضعفنا المستمر، وكان أولى الناس بها إسرائيل حيث حلمها الأزلي الذي لا ينسى، فسيطرت عليها في ساعتين وانتهى الأمر لأنها هددت القاهرة لو قاومت ستقذفها بسلاحها النووي الذي تمتلكه، وهددت القادة بفضحهم.

أخذت أضرب بقبضتي المائدة أمامي، فتصطك الأكواب الزجاجية محدثة صوتا مسموعا في هذا الفراغ الذي يرف المكان، ونظرت إلى ابنته فبدت كامرأة عجوز من الهم والألم ولم تعد كما رأيتها من قبل فارتعت لذلك ونظرت إلى الرجل مستفهما، فأشار إلى أن أنصرف بفكري عنها، لكن الأمر لا يحتمل ربما تحتاج إلى طبيب لكن الرجل تجاهل ذلك، فسألته:

ـــ ماذا يحدث لها؟

فقال بثبات:

ـــ هذه عادتها منذ خلقت، تنضوي وتذبل ثم ترجع فتية كما كانت ولا تستقر على حال، هل تستطيع أن تساعدها؟

ـــ نعم أستطيع.

ـــ إذن لا تتأخر قم فساعدها.

فتوقفت قليلا أمام سكونه وهدوئه فقلت:

ـــ ولم لا تساعدها أنت .. فأنت أولى مني بذلك وأنا منهك مهموم.

فأشار الرجل بيده وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة قائلا:

ـــ حسنا .. اجلس و لا تشغل بالك.

ثم توجه بحديثه إليها قائلا:

ـــ ليلى.. ادخلي غرفتك إلى أن يأذن الله بشفائك.

فاندهشت للإسم!

ـــ ليلى !!!.

ـــ نعم أسمها ليلى، ألم تسمع بهذا الاسم من قبل؟

لم أرد، وسرحت بذهني بعيدا عنهما، وتتابعت الخواطر السوداء في رأسي حول ليلى، لا شك الآن أنها بعد كل هذه الحقائق التي أكدت مرور الزمن وتباعده، أنها الآن في دار أخرى .. قد ماتت.

فقمت من مكاني ووقفت أمام الفتاة، كان وجهها تعقد من شدة تجاعيده وكأنها في عامها المائة، وابيضّ شعرها فلم تبق فيه شعرة سوداء ...

فنزعت خاتم ليلى (البانيت) من يدي وأعطيته لها فارتدته في خنصرها الأيمن كما كانت ليلى تفعل تماما .. فابتسم الرجل ..

وعدت إلى مكاني أترحم على ليلى وأقرأ لها الفاتحة فغلبني الدمع، فوضعت كفي على وجهي وبكيت بشدة حزنا عليها حتى تسرب الدمع من بين أصابعي، وأخذت أردد بصوت خافت قائلا: ليلى ليلى.

رفعت الفتاة رأسها في إجهاد شديد وهمّت بالانصراف في ثقل مرضي أليم، ارتسم على وجهها ألوان مرضية مزمنة ما بين الأصفر والأزرق، ونظرت لأبيها ونظر إليها، وأطرقت كما كانت، وهمس الرجل إلي قائلا:

ـــ فلتفكر الآن ماذا عليك أن تفعل.

فقلت ساهما:

ـــ وماذا علي أن أفعل؟ لقد صدق مينا حينما قال أنه أوشك على الإنتحار، كيف يتسنى البقاء في هذه البلد بعدما حدث، كيف؟ أنسى المصريون تاريخهم لهذا الحد، حضارة سبعة آلاف عام وحضارة دينية أخلاقية، وحضارة اجتماعية و ...

تنهد الرجل وألقى علي صاعقة لم يكن وقتها ولا أتوقعها، لكنه أفلتها فسقطت كحجر هبط فجأة من السماء

ــ يا بني إن حضارة آلاف السنين ذهبت أدراج الرياح، ليس للفراعنة وحضارتهم في تاريخ مصر سوى الذكرى، أما آثار أيديهم التي أبهرت العالم فقد انتهت لتقلبات المناخ الذي أصيبت بها مصر الفترة الماضية دون اهتمام، وبعضها بيع في المزاد الدولي لتسديد الديون ...

تلقيت كلامه بقلب ضعيف وأغمضت عيني وهززت رأسي هزة عابثة، وزممت شفتي المرتجفة، وسال عليهما دمعي السخين فبللهما.

قطع عليّ سكوني اليائس سؤال لم أتوقعه ولم يخطر لي ببال ولا أدري كيف خرج من فم الرجل، قال وهو يشير إلي ابنته التي تبخر جمالها وانطفأت شمعتها وانحنى ظهرها وغرقت في الوهن والضعف الكامل:

ــ ما رأيك أن تتزوج ابنتي فذلك دواؤها؟

فسكت، ولم أدر ماذا يمكنني أن أقول، إن كل ما حولي يدفعني لأن أرفض، إنني لا أعرف أي شئ مما يدور حولي، لا أحد يعرفني ولا أعرف أحد، ولا أعرف أين أنا من هذا الوجود ولا كيف أتيت، ولا كيف أرجع، ولا كيف حدث ما حدث، حتى وإن كنت في عالمي الحقيقي فلا أستطيع أن أتزوج أو أن أقوم بعبء امرأة وبيت وتكاليف أسرة. كنت صحفي صغير، كل عمله في الحياة الجورنال والبيت والصيد ورفقة بعض الأصدقاء وبعض الصديقات المنحرفات، ولا همّ لي يشغلني غير ذلك ...

رجعت من شرودي فلم أجد الرجل ولا ابنته، يبدو أنهما قاما إلى بعض شأنهما، فخرجت من الشقة ونزلت راحلا عن المكان، لكن إلى أين .. لا أدري، فنزلت إلي الحارة ومضيت، كان هناك رجلان يتشاجران يسيل منهما دم غزير وحولهما أهل الحارة يشاهدون ما يحدث دون تدخل، وما إن شاهداني حتى سكنا ينظران إلي، لكني لم أعر لأي شيء اهتماما، وما إن عبرتهما حتى عادا إلى شجارهما الدموي العنيف!.

١٧

مضت قدمي مسرعة وكأنها على موعد، لكن إلى أين!.

أظن أنني طفت بمصر كلها في هذا اليوم، كنت مجنونا فيما أفعل، فمضيت إلى الجامعة، وراقبت الطلبة والمدرسين، كل شيء يدل على أن هناك اختراق ما قد حدث لمنظومة التعليم، دلّ على ذلك أحاديث الطلاب أمام الجامعة وخلف أسوارها عن المواد التي يتم تدريسها هناك، حيث أغلب الكلام عن مواد لا تمت للعلم الحديث بصلة، ولا تدفع للأمام بشيء، كانت هذه المواد قد طبعت على أحاديث الطلاب بطبعها فكان حديثهم جدليات لا طائل منها، ولم أسمع حديثا عن الطب أو الهندسة أو العلوم الحيوية التي تبني المجتمعات .

فمضيت ولا أدري إلى أين تسوقني قدمي، فانتهيت إلى سوق كبيرة للخضروات الفاكهة، كانت حالات الشجار بين الناس والتجار أكثر من حالات البيع والشراء، فالأسعار مرتفعة للغاية، وكل شيء بالسوق مستورد من الخارج بالعملات الأجنبية بالطبع، حتى المساعدات الأجنبية لم تعد تخفف من وطأة الأسعار بعدما أصبحت مصر كمحمية طبيعية تأكل وتشرب من الخارج بعد فساد النيل وفساد التربة الزراعية وتلوث الهواء وسوء المناخ، وكانت هذه السوق كسوق الأوراق المالية، حيث كل سلعة لها عملة مختلفة عن الأخرى حسب الدولة المصدرة، التجار مرغمون على ذلك تبعا للتعاملات البنكية لكل دولة والتي تضغط على المستوردين أن يسددوا بعملتها هي لا بعملة أي دولة أخرى .

مررت ببائع جرائد بجوار السوق فلمحت عيني جريدة الأهرام الجديد .. قرأت عنوانها الرئيس في صدر صفحتها الأولى: محدود الدخل علي رأس اهتمام الحكومة.

قرأت اسم رئيس التحرير فإذا هو: سعيد حتحوت، وأسفل منه إعلان لفيلم جديد للفنانة غادة ياسين.

ثارت ثائرتي فصرخت كالمجنون وقمت بتمزيق الجورنال وقلبت الطاولة فتناثرت الجرائد على الأرض المبتلة ففسدت، فأحاط بي عدد من الرجال والشباب فأوسعوني ضربا حتى أدموني وألقوني طريح الرصيف ..

ومضت ساعات وأنا في غيبوبة تامة انفصلت خلالها عن الوجود، رأيت خلالها نفسي كما أنا الآن ضعيف الحال أشعث الرأس متسخ الملبس رث الهيئة والمنظر، وكأنني بصالة (ديسكو) النيل بوسط البلد التي كنت أقضي فيها الليالي العابثة الماجنة، فرأيت مينا في مثل حالتي لكنه مقيد ويُضرب من رجال أمن، ورأيت رجل المقهى الذي عزمني على شاي بالمستعمرة وأيضا الشاب الذي حاول التسلل خارج المستعمرة مقيدون بسلاسل حديدية في الرقبة كالكلاب ..

وكان الشيخ المسنّ صاحب القبور يبكي وينتحب، أما الراقصون فكانوا المجموعة المحترقة في الغرفة الخشبية!.

أما ليلى فكانت ممزقة الثياب، تصرخ وتستغيث من تناوب الرجال الأجانب علي اغتصابها، كانت غادة ياسين موجودة بضحكتها المميزة مرتدية قميص نوم أحمر شفاف قصير، وكانت مهمتها هي وسعيد حتحوت ـالذي بدا عاريا تماماـ هي فتْح رجلي ليلى قدر المستطاع للمغتصبين.

فك مينا وثاقه وكذلك الشابان الآخران من المستعمرة وقمنا معا لتحرير ليلى فأُطلق علينا نار كثيف من رجال سود الوجوه وآخرين مموهي البشرة لم أستطع تميزهم أكثر من ذلك لكثافة الدخان واهتزازات الإضاءة السريعة ..

فزعت من نومي ومسحت عن وجهي ورأسي الدم، وخلعت القميص الذي أعطاني الرجل إياه في الحارة بعدما مزقت قميصي وضمدت به جراح أحد الشابين النازفة ونزعت عني حذائي، وكنت ثائر الرأس متسخ البدن والوجه، فلم أعد أحتمل أي شيء حتى أثوابي، فجريت بكل ما أوتيت من قوة وطاقة، متجها إلى كوبري عباس المعلق ـ ولا أدري كيف وصلت إليه ـ عازما على الإنتحار، نعم .. الإنتحار ...

كفي عبثا ويكفي ما مضى، سلام عليك يا ليلى، وأسفا لما حدث بك، وأسفا لأنني لا أدري كيف ولماذا حدث ما حدث ولا أين كنت وقتها!.

وانتهيت إلى الكوبري ووقفت أنظر إلى المياه تلتمع في عيني، فاستدرت بظهري مودعا الحياة، فاتجه نظري نحو مبنى التلفزيون سابقا، ودارت عيني على (المباهج) الجديدة، ثم تحولت عيني إلى مدخل ميدان الجيزة، وعدت أنظر تلقاء وجهي إلى القرية السياحية البرتغالية التي في وسط النيل، وانحنت رأسي للمياه وسرحت قليلا فانتبهت لصوت يقول:

ـــ لا معنى للبقاء في هذا العبث، ينبغي على كل عاقل أن يفعلها.

فجحظت عيني وأنا أقول:

ـــ مينا !!! هل عزمت على التخلص من هذا الألم والعبث.

ـــ نعم لقد عرفت أشياء أقل ما يمكن فعله حيالها هو الانتحار.

ـــ آسف لما حدث بالباخرة.

ـــ لا تعتذر فلم يكن بيدك شئ، فنحن فقراء الإرادة .. بلا حرية.

امتدت عيني على يميني ويساري فوجدت أصدقاء الحلم السيئ وغيرهم الكثيرين بجوارنا عازمين على الإنتحار.

فالتفّت أيدينا معا، وصعدنا على السور الحديدي وأغمضنا أعيننا وأنا أقول:

ـــ تذكرنا أيها النيل ونحن في قاعك.

وهممنا بإلقاء أنفسنا لكننا فزعنا لصرخة عارمة آتية من الخلف فوقعنا على ظهرنا ...

كانت ليلى التي تنادي وتنهانا عن الإنتحار، فهرعنا إليها كلنا بلا إرادة و لا أحد منا يدعي أنها أمه هو وحده.

فاحتضناها بشوق مزق قلوبنا ألما، وأدمى عيوننا..

وفي بضع لحظات انتبهنا لصوت سيارة كبيرة من سيارات الغرباء أوشكت أن تدهسنا جميعا، كانت بشعة المنظر لم أرها فيما رأيت من سيارات غريبة هنا، فقفزنا عن الطريق إلي الرصيف وسقطنا بجوار السور الحديدي فارتطمت رؤوسنا بالأرض فدميت وأغمى علي، وكانت آخر كلمة سمعتها قبل غيبوبتي كانت للرجل الأبيض سائق السيارة البغيضة قائلا:

ـــ سأعود، انتظروني مكانكم.

١٨

دقت الساعة في العاشرة صباحا فاستيقظت ثقيل العين والرأس هامد الجسد خائر الأعصاب، فقمت متوكئا على مرفقي، ووقع نظري العابث على نتيجة التاريخ فكانت تشير إلى الإثنين من فبراير ٢٠١٠ فوقفت فزعا، وأمسكتها بيدي أقلبها يمينا ويسارا وأنا أفرك عيني بشدة، فجريت إلى الثلاجة وتناولت زجاجات مياه باردة جدا فأفرغتها على رأسي، ورجعت إلى غرفتي فنظرت إلى النتيجة من جديد، وفتحت شرفتي فوجدت صياح الباعة الجائلين، وزحام السيارات وضجيجها، واستنشقت منتشيا مسرورا عوادم السيارات الخانقة حتى سعلت بشدة، وقلت صارخا:

ــ مرحبا بك يا مصر.

انتبه بعض المارة في الشارع لهذا المجنون الصارخ لكني لم أعبأ بأحد، وانطلقت إلى سطح المنزل فنظرت إلى مبنى التلفزيون فصرخت فرحا، ثم حولت نظري إلى كوبري عباس فوجدته كما هو فزاد صراخي العابث، ونزلت مسرعا إلي جهاز التلفزيون وقمت بتشغيله، كانت مذيعة القناة الأولي تنوه بانتهاء برنامج صباح الخير يا مصر، فأخذت أردد بصوت مرتفع مجنون.

ــ صباح الخير يا مصر، صباح الخير يا مصر.

هدأ صوتي ... وأصغيت سمعي إلى أنين مريض متوجع منبعث من إحدى غرف الشقة، ففزعت قائلا وأنا أتجه إلى الغرفة

ــ ليلى !!!

دخلت إلى الغرفة كانت ليلى على فراشها منهكة عليلة مريضة مجهدة، لا تقوي على فعل شيء، أنينها مزق أوصالي، تشعبت التجاعيد في وجهها الجميل، ماذا حدث لها، لقد كانت مريضة ولكنه مرض ضعيف لا يُرى له أثر في حركتها ونشاطها، وكانت مسنّة ولكنها كانت تبدو كشابة حسناء صغيرة.

فانحنيت عليها وقبلت يدها وخاتمها (البانيت) قائلا:

ــ ليلى .. ماذا أصابك؟

فنظرت إلي بعينين ذابلتين، واغتصبت كلماتها وقالت:

ــ منذ زمن وأنت بجواري، تعلم مرضي لكن لا تسمع أنيني وتوجعي، ولا تعرف ما يجب أن تفعله من أجلي .. لأنك نائم دائما يا بني.

ورددت هذه الكلمة طويلا: يا بني، وكنت أسمعها بعيني فأرى ألوانها القاتمة، وأرى الضعف والألم يشكل حروفها، والعتاب المر يغلفها ...

فقمت وخرجت إلي الصالة ونظرت من نافذتها المطلة على الشارع الرئيس للمنيل، فسرحت في حركة الطريق ووجوه المارة وانتهت عيني إلي كوبري عباس.

تمت

الجيزة ٢٧ / ٣ / ٢٠١٤

عبد الحميد بشارة

عبد الحميد بشارة

كاتب روائي مصري

مواليد القاهرة

صدر له

يهوديت (رواية)

بائع المناديل (مجموعة قصصية)

٢٠٧٦ (رواية)

أمطار يوليو (رواية)

للتواصل مع الكاتب

www.facebook.com/abdelhamed.bishara